الغرب بين ترك الدين ومناداة العودة إليه

الدكتور
عبد الحليم أحمدي
قسم عقيدة وفلسفة - كلية أصول الدين
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الكويت

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد

فقد ترك الغرب اليوم الدين وفصله عن الحياة ، وتوغل فى المادية المتطرفة ، فلم يجعل بذلك مصيره ووجوده على شفا جرف هاركما هو معروف ، وإنما جعل مصير هذا الكوكب كله الذى عاشت البشرية عليه مئات الألوف من السنين ، وبنت خلالها عشرات الحضارات ، على حافة الهلاك ، ولهذا ارتفعت الأصوات تنادى بالعودة إلى الدين .

ترى ما هى الأسباب التى دعته إلى تركه ، ثم ما هى تلك التى تدعوه اليوم إلى العودة إليه ، وأى دين سوف يرجع إليه ؟

هذا هو موضوع هذا البحث المطروح أمام القارئ ، وقد قسمته إلى :

١ - أسباب ترك الغرب للدين وتنقسم بدورها إلى قسمين :

أ - قسم يرتبط بتحريف النصرانية ومظالم رجال الدين ووقوفهم ضد العلم والمعرفة.

ب - قسم أخر يرتبط بالتيارات الفكرية التى بدأت كرد فعل على مظالم الكنيسة ، وقد صنفتها بحيث تمهد كل واحدة منها للتى

تليها ، فقد بدأت تلك التيارات محتفظة بأقل قدر ممكن من الإيمان ، ومهدت لما هو أكثر تطرفا حتى انتهت إلى الإلحاد المطلق ولا يتوقعن القارئ هنا شرحا تفصيليا لكل تلك التيارات ، فإن ذلك يتطلب مجلدات ضخمة ، وإنما يتناول البحث فقط هذا الجانب منها الذى يتعلق بالدين وإنكاره .

٢ - النتائج المترتبة على ترك الغرب للدين في المجالات السياسية والأسرية والاجتماعية والأخلاقية ، وما وصل إليه الغرب في الوقت نفسه من التقدم المادى .

٣ - التفسير الإسلامى لما آلت إليه حال الغرب نتيجة ترك الدين .

٤- مناداة كثير من صناع الفكر والسياسة فى الغرب إلى العودة إلى الدين والحد من المادية المتطرفة ونشأة مذاهب فلسفية تريد العودة إلى الدين بقوة ، وقد أوضحت ذلك من خلال مؤلفاتهم وتصريحاتهم ولقاءاتهم الصحفية ، وبالتالى واجب الدعاة المسلمين إزاء ملء هذا الفراغ الروحى.

٥ - وألحقت بالبحث ملحقا فى نقد أشهر التيارات المادية كالوضعية والماركسية ، أوضحت فيه أولا ما لكل منها من الإيجابية ثم بينت أن الإسلام عالج الموضوع نفسه بأحسن ما يمكن أن يكون العلاج ثم شرحت سلبياتها ونقدتها.أما التيارات أقل شهرة وأثرا فى انتشار الإلحاد أو تلك التى لها أنصار كثيرون اليوم فقد اكتفيت بنقدها فى

هامش البحث ، أو بيان خطورتها على الدين فى المتن نفسه .

والهدف من وضح هذا الجزء من البحث (نقد التيار) في الملحق - دون أن نذكره مع التيار نفسه - هو أن نعطى للقارئ فرصة قراءة التيارات المادية فى تتابعها وتعاقبها وكيف تدرجت بحيث أدت إحداها إلى الأخر واتصل بعضها ببعض .

وأنهيت البحث بالخلاصة والنتائج .

والله أسال أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه والله ولى التوفيق

وهو نعم المولى ونعم النصير

د . عبد الحليم أحمدى

أسباب ترك الغرب للدين

أسباب ترتبط بالديانة النصرانية

تحريف العقيدة وتقديمها مشوهة:

لعبت الديانة النصرانية أكبر دور في ترك الغرب للدين يرجع إلى تحريف رجال الدين للديانة النصرانية الحقة ونشأ عن ذلك عدة أسباب فرعية منها :

- تحريف العقيدة وتقديمها بصورة مشوهة للناس .

- بدعة الرهبانية وغلو الرهبان وفسادهم .

- مظالم الكنيسة ورجال الدين فى المجالات المختلفة .

وسندرس فيما يلى كل سبب من هذه الأسباب بشئ من التفصيل. أما عن تحريف العقيدة فقد قدم رجال الدين النصارى تلك العقيدة بصورة مشوهة سيئة موغلة فى التعقيد - كما سنرى - حتى كره الناس - مثقفوهم وعوامهم - هذا الدين وكرهوا معه كل دين على ظهر الأرض.

ومن الذين لعبوا دورا أكبر فى ذلك شخصان / : أحدهما بولس أو شاؤل الذى اعتنق النصرانية في عهد مبكر[1] ، وثانيهما الأمبراطور الرومانى قسطنطين وقد اعتنقها في القرن الرابع الميلادى[2] . والأول

(١) انظر : سفر أعمال الرسل الإصحاح التاسع لمعرفة قصة تنصر بولس كما يرويها العهدالجديد .

(٢) انظر فى ذلك : ويل ديورانت ، تاريخ الحضارة : الترجمة الفارسية ٣/ ٢١٨و ٣٣٧ ، إذ يري المؤلف أن تنصره كان لأسباب سياسية .

كان يهوديا بينما كان الثانى وثنيا .

ويشك كثير من الباحثين في صدق نوايا كل منهما ؛ لما أحدثا من تغيير جذرى في النصرانية التى تحولت به من ديانة توحيدية خالصة إلى وثينة تؤمن بتعدد الآلهة .

فبولس الذى يرجع إليه أكثر من نصف مصادر العهد الجديد السبع والعشرين ، وضع فى تلك المصارد بذور التثليث وعقيدة ألوهية عيسى وبنوته[1] .

أما قسطنطين الذى يرى كثير من المؤرخين أنه حمل معه بقايا الوثنية الرومانية فقد جمع رجال الدين النصارى فى عام ٣٢٥م في مجمع نيقية بآسيا الوسطى الذى انتهى- ضمن ما انتهى - إلى :

١ - اتخاذ القرار بألوهية عيسى عليه السلام وبنوته وأنه إله وابن للإله[2] وكان هذا الموضوع من الموضوعات المختلف فيها بين النصارى بل كانت الأغلبية منهم تؤمن بأنه عبد رسول .

وهكذا انتقلت النصرانية من عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد إلى الإيمان بتعدد الآلهة.

---

(١) يتكون العهد الجديد من ٢٧ سفرا ، ألف منها بولس ١٤ سفرا.

(٢) انظر : ويل ديورانت : تاريخ الحضارة : المصدر السابق ٣/ ٣٤٥و ٣٤٧ ويذكر فيه بشئ من التفصيل أن آريوس وهو من القساوسة الموحدين ناقش رجال الدين النصاري فى المجمع فى ذلك وأفحمهم ولكنهم تعللوا بأن تلك القضايا فوق متناول العقل البشرى.

٢- اختيار أسفار العهد الجديد السبع والعشرين من بين مئات الأسفار بحيث لا يتنافى مع العقيدة الجديدة إن لم يتفق معها تماما .

٣ - وبالتالى إحراق سائر المصادر والأناجيل والأسفار التي تتنافى مع تلك العقيدة وإصدار القرار بلعن كل من يقرأها أو يملكها أو يعتقد فيها .

وهكذا تم إنشاء ديانة جديدة لاهي بالنصرانية ولا هي بالوثنية وإنما ديانة تمزج بينهما ، وبذلك نجح كل من بولس وقسطنطين فى إفساد النصرانية : بولس عن طريق وضع المصادر التي تزرع بذور التثليث والشرك فيها وقسطنطين عن طريق توظيف واستخدام سلطته الزمنية بانتزاع قرارات من مجمع نيقية تخدم الهدف نفسه .

يقول الفيلسوف الفرنسى الشهير : أرنست رينان[١] حول دور بولس فى المسيحية :(إنه وضع تلك التفاسير والشروح الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى الحقيقى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ولم يفهم تعليم المسيح الحقيقى بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفاريسيين وتعاليم العهد القديم ، وأدخل أمياله على هذا الدين فأفسده مما جعله يخسر صفته الإلهية الكمالية ...).

(١) انظر : محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص ١١ بتصرف واختصار : دار الشروق ط٣ - ١٩٨٨م.

ويقول درابر الأمريكى في كتابه المعروف : الدين والعلم[1] عن دور قسطنطين فى تحريف النصرانية : (وإن هذا الأمبراطورالذى كان عبد للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين : النصرانى والوثنى ، أن يوحدهما ويؤلف بينهما ..) وهكذا استطاع الامبراطور - بطريقة ما - أن يجعل الأغلبية تصوت لصالح الوهية عيسى وبنوته .

يقول المؤرخ الإنجليزى الشهير فيشر[2] : (إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعا من قديم العادات والتقاليد بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة).

ويعلل ذلك درابر في كتابه المذكور الذى أشرنا إليه إذ يقول[3] : (ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ، وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها).

وإذاكان مجمع نيقية قد قرر وجود الهين آمن بهما النصارى فإنهم -أى النصارى - بعد حوالى ستين سنة من هذا المجمع أي فِى عام ٣٨١هـ عقدوا مجمعا آخر في القسطنطينية واشتهر باسم المجمع القسطنطينى الأول ليضيفوا الها جديدا إلى عقيدتهم هو الروح القدس

(١) انظر : الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٤ وما بعدها بتصرف.
(٢) انظر محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص ١١.
(٣) انظر الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلين ص ١٨٤ بتصرف.

لكى تصبح الآلهة ثلاثة[1] .

وهكذا اكتملت عقيدة التثليث : الأب والابن والروح القدس ، وعندما وجدوا أن هذه العقيدة الجديدة تتنافى تماما مع عقيدة التوحيد التي جاءت بها الأديان السماوية كلها ، ومنها اليهودية التي يؤمن النصارى بكتابها ، وهو العهد القديم ، أو التوراة[2]، أرادوا أن يجمعوا مرة أخرى بين ما توصلوا إليه من التثليث ، وبين عقيدة التوحيد كما جمعوا - من قبل - بين النصرانية والوثنية .

فلم يجدوا طريقا غير أن يقولوا : إن الله واحد فى ثلاثة ، وثلاثة فى واحد.

(١) إن عقيدة التثليث: كانت موجودة قبل النصرانية عند بعض الشعوب بل بعض المدارس الفلسفية ،فالمدرسة الأفلاطونية الحديثة ومؤسسها أفلاطون (٢٠٣- ٢٧٠) كانت تؤمن بثلاثة أصول هى : الله والعقل والنفس أو الروح ، كما كانت الديانة البرهمية تؤمن بثلاثة ألهة هى : براهما وسيفاوفشنا (انظر:د. علي الوافى : الأسفار المقدسة ١٢٩ وما بعده بتصرف واختصار) وكان هناك ثالوث آخر عند المصريين هو : ايزيس واوزوريس وحوريس كلها آلهة ...

(٢) لا تخلو التوراة الحالية من نصوص تدل على الشرك والوثنية وتعدد الآلهة كما هو معروف عند دارسى مقارنة الأديان وذلك لارتداد اليهود مرات عديدة إلى الوثنية عبر تاريخهم الطويل (انظر فى ذلك ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ١/ ٢٩٠ وما بعدها وقارن ب، ٣٢٧، ٣٢٩ إلا أن الصبغة العامة للتوراة هى التوحيد وهو مما يدعو اليهود إلى الفخر صدقا أو كذبا أنهم أول من جاءوا بعقيدة التوحيد ، ويؤول مفسرو التوراة آيات الشرك والوثنية فيها إلى معانيها المجازية البعيدة حتى تتفق مع عقيدة التوحيد ، اقرأ فى ذلك موسى بن ميمون : دلالة الحائرين صفحة ٤٤٨ وما بعدها وقارن بـ ١٨٠ -١٨١ وهناك من يرى أن السبب في تناقض نصوص التوراة هو أن العقيدة الدينية لدي اليهود مرت بعدة مراحل (انظر:د. الوافى الأسفار المقدسة) ويؤيد ذلك ما يذكره ابن حزم من ارتداد اليهودية إلى الوثنية عدة مرات (انظر: الفصل) .

كيف يكون الشئ ثلاثة واحد فى آن واحد ؟وكيف يمكن للإنسان العادى وهو المخاطب من قبل الأديان أن يحل هذا اللغز الغريب ؟

الإله المزعوم يصرخ ويتألم على الصليب :

والأغرب من ذلك أن هذا الإله المزعوم ، قد صلب وقتل ودفن فى القبر وصرخ أثناء صلبه واستنجد بأبيه الرب ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، ولم يستطيع أن ينقذ نفسه من أيدى أعدائه كما لم يستطع أو لم يشأ الرب تعالى ذلك ، فمات الابن الإله[1] !!

أما لماذا مات فهو أغرب من ألوهيته وصلبه ودفنه ، إنه مات تكفيرا عن خطايا البشر وما هى الخطيئة التي ارتكبها البشر ؟ إنهم لم يرتكبوها وإنما ارتكبها أبوهم آدم ، وانتقلت الخطيئة بالوراثة والنسل إليهم[2] !!

وعلى هذا كان على عيسى أن يدفع ثمن خطيئة ارتكبها آدم عليه السلام !!

---

(١) انظر فى قصة صلب المسيح : العهد الجديد ، الأناجيل الأربعة ، فهى كلها تكتب عنها وترويها بالتفصيل وعلى سبيل المثال : انظر انجيل متى الإصحاح ٢٦. ٢٧.

(٢) انظر : العهد الجديد ، رسالة بولس الرسول إلى أهل روميه الإصحاح السادس وقارن بمرقص ١٠/ ٤٤ ويوحنا ٣/ ١٦ ورسالة روميه ٣/ ٢٣ وانظر لمزيد من التفاصيل وردودها : رشيد رضا : تفسير المنار ٦/ ٢٤/ ٢٥.

يتناولون جسد الههم:

الأغرب من كل ما فات أن عيسى عليه السلام قد تناول ليلة صلبه كسرة خبز ونبيذا ، ونصحهم بأن يفعلوا ذلك كل عام في الليلة نفسها ، فتتحول كسرة الخبز إلى جسده كما يتحول النبيذ إلى دمه ، فيتحول الأكل إلى مخلوق رباني يحل فيه روح المسيح عليه السلام ! ! وهذه الوجبة فى تلك الليلة يسمونها بالعشاء الربانى(١) .

وهذه الثلاثة : التثليث والصلب (صلب عيسى تكفيرا عن خطايا البشر) والعشاء الربانى تعتبر - مع محاسبة المسيح عليه السلام الناس يوم القيامة - العمودالفقرى للديانة النصرانية ، وهكذاتحولت الديانة النصرانية إلى الوثنية ، مقوماتها الأساسية أشبه بالألغاز منها بالعقائد الواضحة التى يجب أن تكون فى متناول فهم الناس، فهى مقولات غير مفهومه حتى قال رجال الدين النصارى أنفسهم "تؤمن أولاً ثم تسأل(٢)، فهو الإيمان بغير المفهوم والمعقول بل هو الإيمان ضد العلم

---

(١) انظر فى ذلك : العهد الجديد : الأناجيل الأربعة ، وعلى سبيل المثال انجيل متى ، المصدر السابق ، ٢٦/ ٢٦/ ٢٨ إذ يقول : أخذ يسوع الخبز وبارك وكسّر وأعطى التلاميذ ، وقال : خذوا ، كلوا هذا هو جسدى ، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمى ..." والتحول هنا عند الكاثوليك تحول حقيقى ، أى يتحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه تحولا حقيقيا ، وهم أى الكاثوليك الأغلبية من النصارى ، أم البروتستانت ، فالمدرسة الألمانية منها ترى أن المسيح حاضر فى الخبز والخمر باعتباره إله والإله موجود وحاضر في كل مكان ، أما المدرسة السويسرية ومؤسسها كالفن فترى أن ذلك مجرد ذكرى فقط ورأيها أقل خرافة من سائر الطوائف المسيحية .

(٢) انظر في ذلك الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٢٣.

والفهم ، بل ضد الحواس التى تعتبر أولى مصادر العلم والمعرفة ، إذ المطلوب من النصرانى أن يكذب حواسه التي ترى وتلمس الخبز، وتؤمن أنه جسد المسيح وأن النبيذ أو الخمر الذى فى كأسه إنما هو دم المسيح عليه السلام الإله .

وإنه - فوق ذلك - إذ يفعل هذا ويأكل من جسد ا لمسيح ويشرب من دمه فإنما يفعل الخير كل الخير ... إذ يأكل إلهه ويشرب من دمه .

والغريب أن الكاثوليك وهم أغلبيةالنصارى قد اتخذوا قرارا في مجمع لانيران - كما يقول المؤرخ الإنجليزى الشهير ويل ديورانت(١) يقضى بأن كل من سواهم من البشر حتى من الطوائف النصرانية الأخرى في جهنم وأن الأطفال الذين * يموتن قبل التعميد يدخلون أيضا جهنم(٢) فى نظر الكاثوليك ولا شك أن مثل هذه العقائد التى تشبه الألغاز أكثر منها العقائد السماوية البسيطة السهلة أدت بكثير من

(١) انظر : تاريخ الحضارة : الترجمة الفارسية ، ترجمة أبى القاسم ٤/ ٢٩٩.

* من الإنصاف أن نذكر أن هذه النظرة قد طرأ عليها بعض التغيرات فى القرن العشرين وخاصة بين عامى ١٩٦٢-١٩٦٥ وقد أقر المجمع الفاتيكاني الثانى أن الخلاص يشمل اتباع سائر الأديان أيضا ، انظر في ذلك الكيس جورافسكى : الإسلام والمسيحية ترجمة : د. خلف محمد الجراد ، مراجعة . د.محمود زقزوق . ص١٥٠ وقارن بـ ١٤١-١٤٣.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٩٨، والتعميد هو غطس الطفل وأحيانا الرجل البالغ في الماء مرة أو ثلاث مرات باسم الأب والابن وروح القدس.

النصارى الذين وجدوا فيها خرافات بعيدة عن العقل والمنطق ، إلى الإلحاد وترك الدين .

يقول ابن القيم[1] عن المسيحيين ونظرتهم إلى الحقائق الدينية «وهؤلاء هم الذين أوجبوا ، لأعداء الرسل - من الفلاسفة والملاحدة - أن يتمسكوا بما هم عليه فإنهم شرحوا لهم دينهم الذى جاء به المسيح ، على هذا الوجه ، ولا ريب أن هذا دين لا يقبله عاقل ..."

ويقول أحد العلماء البارزين فى العصر الحديث هو وولتر أوسكار لندبرج[2]: " فى جميع المنظمات الدينية والمسيحية ، تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم ، فى إله على صورة الإنسان ، بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة على الأرض .

وعندما تنمو العقول ، بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية ، فإن تلك الصورة التى تعلموها منذ الصغر ، لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم فى التفكير أو مع أى منطق مقبول .

وعندما تفشل جميع المحاولات فى التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى ، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية.

وعندما يصلون إلى هذه المرحلة ، ويظنون أنهم قد تخلصوا من

---

(١) انظر : إغاثة اللهفان ١/ ٢٧٧.

(٢) انظر : الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣١-٣٣.

أوهام الدين ، وما ترتب عليها من نتائج نفسية ، لا يحبون العودة إلى التفكير فى هذه الموضوعات ، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة ، تتصل بهذا الموضوع ، وتدور حول وجود الله).

نشأة الرهبانية:

ولم يقف دور العقائد النصرانية المحرفة السابقة عند تنفير الناس عنها لتعقيدها ومنافاتها للعلم والعقل ، بل انبثقت عنها - شأنها شأن كل عقيدة - ممارسات ونظم وعبادات وشعائر .. الخ أثرت فى صياغة الحياة في أوربا لأكثر من ألف سنة وأهم ما نشأ عنها هو الرهبانية ، فعقيدة الصلب والفداء مثلا تعنى - ضمن ما تعنى - أن يكون الخلاص محور تفكير الإنسان ونشاطه في الدنيا ، وعليه - لكى يكون كاملا - التشبه بعيسى المسيح عليه السلام الذى قبل الصلب راضيا لكى يطهر أو يخلص البشرية من اثم الخطيئة .

والأناجيل الموجودة بين أيدينا والمعترف بها عند النصارى تؤكد هذا المعنى فيما ترويه وتنسبه إلى المسيح عليه السلام .

إذ يروى انجيل متى [1] أنه تقدم شاب إلى المسيح عليه السلام سائلا عن العمل الصالح حتى تكون له الأبدية فقال له عليه السلام[2]، ضمن ما قال : "إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط

---

(١) انجيل متى ١٩/ ١٦ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢١/ ٢٢.

الفقـراء فيكون لك كنز في السماء وتـعال اتبعنى ، فلما سـمع الشاب الكلمة مـضى حزينا ، لأنه كان ذا أمـوال كثيرة ، فـقال يسوع لتلامـيذه الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكون السماوات.

وأقـول لكم أيضـا : إن مـرور جـمل من ثـقب إبرة أيسـر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله".

ولهذا قال [1]: "لا تقتنوا ذهبا ولا فضـة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ".

وتجاوزت التعاليم النصرانية المحرفة من ترك المال إلى ترك الزواج فقد نسبوا إلي المسيح عليه السلام قوله [2]: يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهـاتهم ، ويوجدخصـيان خصـاهم الناس ويوجد خصـيان خصوا أنفسهم لأجل ملكون السماوات ، من استطاع أن يقبل فليقبل "

وهذه دعـوة صـريحـة إلى ترك الزواج ،ومن المـعـروف أن فكرة الخطيـئة التى نشـأت عنها عـقيدة الصـلب والخلاص ، تحتـوى على أن المرأة وهى حـواء هى التى شـجـعت آدم عـليـه السـلام على الأكل من الشجـرة ، وبالتالى فهى - أى المرأة - سـبب البلاء وأساس الشـر ، فلا غرو بعد ذلك أن تدعو النصرانية إلى ترك الزواج والتبتل ، ولا سيما أن

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٠-١١.
(٢) المصدر السابق ١٩/ ١٢.

الرسل والحواريين بل إن عيسى عليه السلام نفسه عاش زاهدا لم يتزوج [1].

بل إن الأناجيل فى كثير من نصوصها المنسوبة إلى عيسى عليه السلام تذهب إلى أبعد من مجرد العزوبة والتبتل ، إذ تدعو إلي تحمل الآلام حتى الهلاك والموت ، فقد ورد في إنجيل متى[2] على لسان عيسى عليه السلام : " إن أراد أحد أن يأتي ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى ، فإن من أراد أن يخلص نفسه ، يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى ، يجدها " .

كما ورد في إنجيل لوقا [3]: " من طلب أن يخلص نفسه يهلكها ومن أهلكها يحييها".

مبالغات الرهبان:

وهكذا نشأ عن العقائد النصرانيةالتي قدمها رجال الدين للناس، منهج للحياة يتلخص فى ضرورة الغزوف والتجرد عن الدنيا مالا وأولادا وزوجة وجاها ... الخ بل كان النصرانى الحقيقى هو الذى يتحمل الآلام والمشاكل إلى درجة الهلاك والموت .

---

(١) قد يكون هذا أحد أسباب نشأة الرهبنة أو أصلهافى الكتاب المقدس وسيرة الحواريين وهناك من يرى أن الرهبنة نشأت فى النصرانية لأسباب اجتماعية واقتصادية أيضا ، انظر : برتراندراسل : تاريخ الفلسفة الغربية ٢/ ١٧١ وما بعدها .

(٢) متى ١٦/ ٢٤ -٢٥.

(٣) لوقا ١٧/ ٣٣.

" ولهذا ظل تعذيب الجسم كمالا في الدين والأخلاق إلى قرنين وروى المؤرخون من ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب مكاريوس أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح "(١).

وكان بعض هؤلاء الرهبان من أمثال بساريون وباكوميوس لا ينامون لمدة أربعين أو خمسين سنة على الأرض .

كما كان بعضهم يختار السكوت ويلزم الصمت سنين عديدة دون أن تخرج من شفتيم كلمةواحدة ، بينما كان الكثير منهم يحملون - أثناء المشي أثقالا من الحديد على أيديهم وأرجلهم "(٢) .

" كان الرهبان المصريون يعتبرون العلم بالأمور الدنيوية عبثا ، ولهذا كان الكثيرون منهم أميين لا يعرفون القراءة والكتابة ، كما كانوا يعدون الغسل والطهارة مخالفا للإيمان والتدين ، فمثلا سيلويا Silvia الراهب يتجنب وصول الماء إلى أى جزء من جسده ما عدا الأصابع ، وفى صومعة كان يعيش فيها ١٣٠ راهبا ، لم يكن هناك من يستحم ويغتسل بل لم يكن هناك من يغسل رجليه.

---

(١) انظر : الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صفحة ١٨٥ .

(٢) ويل ديورانت تاريخ تمدن : كتاب جهارم ، عصر إيمان ، بخش أول ، أوج اعتلاء بيزانس ص ٨٦ بتصرف واختصار ترجمة : أبوطالب صارمى - دار اقبال.

" وعندما تعود الرهبان بالتدريج علي الغسل واستعمال الماء كان الراهب الكساندر ، يدين هذا الانحطاط فى الدين وهو ينظر بالإحترام والأسف معا إلي تلك الأيام الخوالى التى لم يكن فيها الرهبان يغسلون وجوههم " (١).

" وكان الرهبان السوريون يربطون أنفسهم بواسطة السلاسل الحديدية بالصخور وكان بعضهم مثل سيمون ستوليتس (٣٩٠-٤٥٩) حسب بعض الروايات صام أربعين يوما دون الإفطار وقد بنى لنفسه عمودا على ارتفاع ستين قدما وعرض ثلاثة أقدام فقط، عاش على رأسه ثلاثين عاما متواليا صيفا وشتاء متحملا شدة حرارة الشمس والظروف الجوية من البرد والأمطار ... الخ ، وقد كان تلاميذه المخلصون يمدونه عن طريق السلم بالطعام وينظفون مكانه ، وقد ربط نفسه بالحبل المربوط بالعمود وكان الحبل دخل أذنه حتى تعفنت بالديدان ،وكلما كانت تسقط دودة منها يرفعها مرة أخرى ،ويعيدها إلى مكانها قائلا : كلى مما رزقك الله ".

" وكان أمرا عاديا بعد ذلك كله أن يصاب الرهبان بالجنون أو الأمراض النفسية المستعصية وأحيانا هوس الجنس ولا سيما كلما رأوا امرأة ، كما كان بعضهم يترك الصومعة وحياة الدير والرهبنة إلى الأبد بمجرد أن يلتقى بامرأة فى نظرة عابرة " (٢).

---

(١) المصدر السابق ص ٩٧ بتصرف واختصار ، وظل الوضع على هذه الشاكلة حتى عندما سقطت الدولة الإسلامية فى الأندلس وجنودالنصارى يلاحقون المسلمين بيتا بيتا ، كانوا يميزون بيت المسلم عن النصرانى بوجود الحمام فيه .

(٢) المصدر السابق ٩٨ باختصار وتصرف .

ومن الطبيعي أن لا يدوم مثل هذه الأعمال المنافية للفطرة الإنسانية وطبيعة الأشياء ، وسنة الله في كونه وخلقه دون مخالفات ازدادت وانتشرت بالتدريج حتى خرج الشغف بالمال والجاة والجنس من رحم الرهبنة التى ألزم القساوسة والرهبان - فى الظاهر - أنفسهم بها ، إذ يذكر التاريخ ممارسات جنسية أدت بدورها إلى ارتكاب أبشع أنواع الجرائم ، مما وقع فى تلك الصومعات والأديرة حتى تقشعر لها الأبدان وتوصم جبين البشرية بالعار كما سيأتى إن شاء الله .

نشأة طبقة رجال الدين والتقليد الأعمى:

لقد أدى ضياع الإنجيل الذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام إلى أن يكتب النصارى أناجيل وأسفارا مقدسة أخرى ، كل منها يحمل اسم صاحبه حتى بلغت المئات كما ذكرنا سابقا ، واندس - كما رأينا - بين الأتباع والتلاميذ من لا يريد الخير للنصرانية ، فكتب ما كتب من الأسفار وأضاف ما أضاف من النصوص فيها وكان من أخطر النصوص التى أضيفت هى تلك التى تمنح للبشر حق الرب تعالى وتجعله نائبا عنه في وضع ما شاء من العقائد والعبادات والتشريعات، ومن هذه النصوص قول المسيح وهو يخاطب بطرس كبير الحواريين[1] : " أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى ،

(٢) انظر متى ١٦/ ١٨-١٩ ، وقارن بـ ١٨/ ١٨.

وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه علي الأرض يكون مربوطا فى السماوات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات " .

ومنها قول عيسى عليه السلام وهو الإله عندهم : " إنى أهب سلطانى لكنيستى"

وإذا كان عيسى الإله - والعياذ بالله - وكّل البطرس عنه في وضع ما يشاء ورفع ما يشاء ووهبه سلطانه الإلهى، فقد وكل بطرس من يخلفه عنه وهكذاانتقل هذا السلطان والنيابة إلى البابوات إلى يومنا هذا (١).

---

(١) وإذاكان برطس نائبا عن الله تعالى : والعياذ بالله فقد اتخذا النصارى من روما - حيث قتل - مقرا للبابوية وجعلوا من فاتيكان -وهى مدينة صغيرة داخل روما - دولة مستقلة ذات سيادة داخل دولة إيطاليا ، لها التمثيل الدبلوماسى مع جميع أو معظم دول العالم .

الفرق بين عالم الدين ورجل الدين :

يختلف رجال الدين عن علماء الدين باعتبار أن الأولين ينوبون عن الله تعالى فيقومون بما لا يستطيع أن يقوم به غير الرب سبحانه وتعالى الذى أنابهم ووكلهم - حسب اعتقادهم - بالقيام بمهامه وصلاحياته أما عالم الدين فيبلغ فقط عن الله تعالى الدين ، ولا يستطيع أن يضيف عليه ، كما لا يستطيع أن يحذف منه ، ولا يستطيع أن يحرّم أو يحّل شيئا من عنده بخلاف رجل الدين الذى قد يحلّ ما حرمه الله تعالى وقد يحرّم ما أحلّه الله فى كتابه ، وهو ما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبادة فى حديثه المشهور مع عدى بن حاتم الطائى ، وقد احلّ رجال الدين النصارى فى مجامعهم الكثير مماحرّمه الله فهناك مجمع أورشليم الذى أحلّ لحم الخنزير المحرم في العهد القديم ، وألغى وجوب الختان المكتوب فى التوراة ... الخ

كما قد يغفر رجل الدين الذنوب عن الناس مقابل مبلغ من المال أو دونه كما كان هو المتبع ولا يزال فى كنائس النصارى . ==

ولايخفى ما لنشأة هذه الطبقة الإلهية - والعياذ بالله - من أثر في نفوس الناس علمائهم وعوامهم الذين يرون رجال الدين هؤلاء يرتكبون من المعاصي والذنوب والأخطاء ما يرتكبه سائر البشر ثم يغفرون ذنوب وخطايا غيرهم وينوبون عن رب العالمين ، مما مهد الطريق لانتشار التيارات الإلحادية التى تعارض وتعادى فكرة الدين أصلا ، بغض النظر عن طبيعتة وحقيقته .

==كما كان النصارى يغفرون الذنوب مقابل شراء صكوك الغفران الخاصة بذلك أو لبيع الجنات كما سيأتى.

وإيمان الناس وكفرهم مرتبط بشفتى رجل الدين الذى يحكم على شخص منهم بأنه مؤمن فيكون مؤمنا فعلا وحقيقة أو بأنه كافر فيكون كافرا حقيقة ، بغض النظر عما فى قلبه من الإيمان أو الكفر.

وقد يمنح رجل الدين للناس صكوك الغفران عما ارتكبوا من المعاصى بل عما سوف يرتكبون ، وقد يمنحهم صكوك الجنات لكى يدخلوها عند موتهم بلا حساب.

إنهم - في الحقيقة والواقع - نواب عن الله وكلاء عنه في نظر النصرانية - يقومون بجميع ما يقوم به الرّب والعياذ بالله .

ولا شك أن كل ذلك يختلف تماما عن عالم الدين في الإسلام ، فهو ، بل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وسائر الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبلغون عن الله تعالى ، لا يملكون لغيرهم ولا لأنفسهم شيئا من ضر أو نفع فى الدنيا والآخرة اللهم إلا الشفاعة فى الآخرة بالتفصيل الذى ورد فى كتب العقيدة الإسلامية.

وعلى كل حال ، اعتبر رجال الدين النصارى أنفسهم وسطاء بين الله سبحانه وتعالى وسائر البشر ، ينوبون عنه فى أمور الدين والدنيا ويحرمون على الناس ويحلون لهم ما يشاؤون ، يغفرون خطاياهم ومعاصيهم باسمه تعالى .

والدين أو الشرع ، والكتاب المقدس ، كما يفهمه هؤلاء ، ولا يجوز لغيرهم - مهما أتوا من العلم والمعرفة - تفسيره أو شرحه أو فهمه بخلاف ما يفهمونه .

وقد أعلنت الكنيسة ورجال الدين احتكار تفسير الكتاب المقدس متبنية الآراء اليونانية الموروثة ، خاصة الأفلاطونية والأرسطية منها ، ومفسره العهدين : القديم والجديد في ضوء تلك الآراء التى أصبحت بعد ذلك مقدسة تعد مخالفتها خروجا على الدين والشرع الإلهى، بعدما كانت مجرد آراء بشرية تحتمل الخطأ والصواب يمكن مخالفتها بآراء أخرى ، مما أدى إلى مقاومة كل الاكتشافات والاختراعات بل كل جديد يخالف آراء أفلاطون وأرسطو وسائر فلاسفة اليونان[1] .

فمن الاكتشافات التي قاومتها الكنيسة نظرية دوران الأرض حول الشمس التي اكتشفها نيكولاى كوبر نيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣) وكانت ضد نظرية بطليموس التي كانت تقضى بثبات الأرض

(١) ومن الغريب أن هذا الإعجاب ظل سائدا ولا سيما بأرسطو حتى العصر الحاضر ، يقول الفيلسوف البريطانى الشهير . برتراندراسل : لما وجهت نقدا لأرسطو فى إحدى إذاعاتى نتج عن ذلك كثير جدا من احتجاج الكاثوليك (انظر تاريخ الفلسفة الغربية ٢/ ٢٣٤).

ومركزيتها بالنسبة للشمس ، وهى متفقة تماما مع نظرة ارسطو بأن الحالة الطبيعية التي كان عليها الوجود هى الثبات[1] .

وعندما أظهر كبور نيكوس رأيه - بعد تردد - قامت الكنيسة ضده قائلة : " يريد ذلك الأحمق أن يقلب علوم الفلك كلها رأسا على عقب ، والكتاب المقدس ينص علي أن الشمس هى التي أمرها يوشع بأن تقف .

كما أنه مخالف لما ورد في المزمور ٩٣ وكذلك ثبتت المسكونة لا تتزعزع[2].

ولما جاء تلميذه ، جيوردانوبرونو، يتبنى رأى أستاذه ويصر عليه ، حوكم أمام محكمة التفتيش التي حكمت عليه بالموت حرقا وأحرق مربوطا إلي عمود فى عام ١٦٠٠[3] .

وعندما اخترع جاليلو المنظار المقرب وأظهر فى سنة ١٦١١ أن للزّهرة منازل كمنازل القمر ، وأن الأرض فعلا تدور حول الشمس، وأنها ليست مركز الكون ، واجه نفس المصير ، فلقد عكفت جماعة من رجال الكنيسة لدراسة رأيه ، رافعة تقريرها على ما يأتى : "إن القضية

---

(١) انظر : برتراندراسل : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ٥٨، وقارن بـ٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ بتصرف.

(٣) انظر : برونوفسكى ، ارتقاء الإنسان : ترجمة :زهير الكومى ، عالم المعرفة - الكويت ١٩٨١ ،وانظرأيضا : ظاهرة العلم الحديث ص ٩ وما بعدها .

الأولى بأن الشمس هى المركز وأنها لا تدور حول الأرض ، حماقة وسخف وخاطئة ، من الناحية الدينية وبدعة ؛ لأنها معارضة للكتاب المقدس صراحة ، أما القضية الثانية بأن الأرض ليست مركزا وإنما تدور حول الشمس فهى سخيفة وخاطئة من الناحية الفلسفية ومعارضة للإيمان الصادق ...).[1]

وحوكم جاليلو أمام محكمة التفتيش فى ١٢ إبريل عام ١٦٣٣ م[2] أى بعد محاكمة زميله برونو الذي أحرق حيا ،حتى اضطر إلى سحب رأيه وقال فى الوثيقة الموقعة باسمه : (أنا المدعو غاليلو غاليلى قد اعترفت بأخطائى وأقسمت وتعهدت كما هو فى أعلاه ، وشهادة بصدق ذلك قد كتبت بخط يدى هذه الوثيقة المتعلقة بإعلان تنصلى من تلك الآثام.

أنا غاليلو غاليلى قد اعترفت بأخطائى علانية كما فى أعلاه ودونتهابيدى).

وبذلك أنقذ غاليو أو جاليلو نفسه من الموت حرقا ولكنه وضع بقية حياته رهن الإقامة الجبرية حتى يستكمل توبته [3].

---

(١) المصدر السابق واقرأ أيضا راسل : حكمة الغرب ٢/ ٥٥، ٥٦.

(٢) اقرأ فى ذلك راسل تاريخ الفلسفة الغربية : ٣/ ٦٦-٧٠ والقاعة التي حوكم فيها جاليلو هى الآن جزء من مكتب البريد فى روما ، انظر : ارتقاء الإنسان ص ١٦١.

(٣) ارتقاء الإنسان ١٦٧ وما بعدها.

ومات سجينا فى بيته عام ١٦٤٢، وفى يوم عيد الميلاد من ذلك العام نفسه ولد إسحاق نيوتن في إنجلترا الذى تشكل حياته أيضا سلسلة أخرى من حلقات الصراع مع الكنيسة (١).

ولم تكن الكنيسة تقاوم الآراء العلمية الخاصة حول الكون والطبيعة والأرض فحسب بل كانت تقاوم كل رأى أو اكتشاف قد يؤدى إلى التخفيف عن الإنسان .

ومن أمثلة ذلك قاومت طريقة إدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض (التطعيم) وقاومت تخدير المرأة عند الولادة لتخفيف آلام الطلق عنها .

علما بأن طريقة إدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض قد اكتشفت عند المسلمين في الآستانة ونقلتها أمرأة تسمى مارى مونتاجو سنة ١٧٢١ إلى أوربا .

أما تخدير المرأة فاكتشاف أمريكى قاومة القساوسة لأنه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو العقوبة التي سجلت عليها فى سفر التكوين إذ جاء فى الإصحاح الثالث منه : وقال للمرأة : تكثيرا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادا (٢).

---

(١) ارتقاء الإنسان ١٦٩ وما بعدها.

(٢) انظر : محمد عبده ، الإسلام والنصرانية ص ٢٣و ٢٤ والنص فى سفر التكوين ٣:١٦ وكان ذلك كما يقول سفر التكوين عقابا لحواء ((قال الرب لآدم من أعلمك أنك عريان .. قال آدم : المرأة التي جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت ، فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذى فعلت ، فقالت المرأة : الحية غرتنى فأكلت .. وقال للمرأة تكثيرا أكثر .. الخ . انظر : التكوين :٣-٨-١٦.

وقبل أن نترك هذا الموضوع ينبغى أن نؤكد نقطة قد تكون ذات أهمية وهى أن حركة الإصلاح فى أوروبا ومنها البروتستانتية بزعامة مارتن لوثر ، وكالفن ، لم تؤيد العلماء والمفكرين بل وقفت فى صف الكنيسة تحاربهم ولهذا هاجم لوثر ، كوبرنيكوس ، ووصفه بالحمق كما هاجمة كالفن (١).

وهذا لا يمنع أنها كانت من أحد أسباب النهضة الأوروبية فيما بعد وإن كان هناك من يرى أنها أدت إلى ذلك على الرغم من إرادة أصحابها(٢) .

استغلال الدين للمكاسب المادية:

وكان المفترض أن يكون القساوسة والرهبان ورجال الدين هؤلاء أكثر الناس تقشفا وزهدا فى الدنيا ومتاعها القليل متجردين للآخرة تاركين الدنيا متمسكين بتعاليم ووصايا المسيح عليه السلام سجلتها أناجيلهم نفسها إلا أنهم ساروا على عكس ذلك تماما ، فتوغلوا فى طلب الدنيا إلي درجة الطغيان والتكالب على الادة والمكتسبات الدنيوية ففى المجال الاقتصادى كانت الكنيسة تفرض ضرائب على الناس وكانت مصادر أملاكها متعددة كالأوقاف والعشور والهبات والسخرة .

---

(١) انظر : برتراندراسل : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ٦٢.

(٢) انظر لمعرفة تفاصيل ذلك : كرين برينتون : تشكيل العقل الحديث : ترجمة شوقى جلال صفحة ٩١ وما بعدها عالم المعرفة - الكويت .

(فأما الأوقاف فقد كانت الكنيسة تستولى على أراضى زراعية واسعة وتوقفها على نفسها لتنفق منها على الأديرة والكنائس وتجهيز الجيوش للحروب الصليبية أو الحروب التأديبية التي تقوم بها ضد الملوك والأباطرة الخارجين على سلطانها . وفى ذلك قول ويكلف وهو من أوائل الذين ثاروا على الفسا د الكنسى وطالبوا بالإصلاح الشامل : إن الكنيسة تملك ثلث أراضى انجلترا وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقى .

* كما فرضت الكنيسة على اتباعها أن يدفعوا إليها عشر أموالهم ضريبة سنوية لا يملكون التملص منها تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب الرب !

يقول ويلز:

(كانت الكنيسة تجبى الضرائب . ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهى لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والبر ، بل طالبت به كحق !

وفرض البابا يوحنا الثانى والعشرون بالإضافة إلى ذلك ضريبة جديدة سميت ضريبة السنة الأولى وهى دخل السنة الأولى لأية وظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية يدفع إلى الكنيسة بطريق الإجبار !

أما الهبات فهى هبات فى ظاهر الأمر فقط ! ولكنها تؤخذ بالإحراج والتوريط ، والترغيب والترهيب ! وخاصة الهبات التى تمنح للكنيسة فى الوصايا التي يكتبها الناس قبل موتهم . فقد فرضت الكنيسة علي الناس ألا يكتبوا وصاياهم إلا على يد القسيس ! وما دام القسيس حاضرا وقت كتابة الوصية فقد أصبح الواجب - من باب المجاملة على الأقل- أن يهب الوصى شيئا من ماله للكنيسة حتى لا يكون مجافيا للذوق ! أو حتى يتحاشى ما هو أخطر من ذلك :غضب الأرباب المؤدى إلى غضب رب الأرباب!!

أم السخرة فقد كانت الكنيسة تفرضها علي رعاياها بالعمل يوما واحدا في الأسبوع بالمجان فى أراضى الكنيسة الواسعة ، فيعمل التعساء ستة أيام في الأسبوع ليجدوا خبز الكفاف لهم ولأسرهم ، ثم يعملون اليوم السابع - يوم الراحة - سخرة فى أراضى الكنيسة لكي توفر الأخيرة أجور العمال التي كان المفروض أن تدفعها لقاء زراعة اقطاعياتها الواسعة وجنى حاصلاتها وتزداد اكتنازا وضراوة فى طلب المزيد من المال !

لقد كان من السهل على الكنيسة أن تمارس ذلك الطغيان المالى وهى تملك ذلك النفوذ الطاغى على أرواح الناس وعقولهم ، فما هى إلا أن تصدر الأمر فيطيع العبيد صاغرين)[1].

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٢-٤٣ بتصرف ولمزيد من التفاصيل راجع ويل ديورانت : تاريخ تمدن، الترجمة الفارسية : كتاب جهارم، عصر إيمان ترجمة أبو القاسم طاهرى ص ٣٦١و ٤٠٢و٣٦٩.

وكان من أهم مصادر الدخل عند الكنيسة هو بيع المناصب الكنسية يقول الفيلسوف البريطانى المعاصر الشهير برتراندراسل[1] عن هذه الفترة :

(فقد كان من المألوف أن يبيع الملك مناصب الأسقفية ، وكان الأسقف بدوره يبيع كل ما يملك بيعه من امتيازات الكنيسة ، للحصول على المال الذى دفعه عند تعيينه جهارا نهارا دون أية تحفظات).

(فهذا هو جربرت " سلفستر الثانى " يمثل الأساقفة حين يتصورهم يقولون : لقد دفعت ذهبا وظفرت بالأسقفية ولست أخشى شيئا إذا أن تصرفت علي النحو الذى يرد لى ذهبى فها أنذا أعين القسيس فى مقابل الذهب وأعين شماس الكنيسة فى مقابل كومة من الفضة ، فانظر إلى الذهب الذى كنت دفعته قد عاد موفورا إلى كيس نقودى كما كان).

إلا أن أهم مصادر الكنيسة المالية وأكثرها جلبا للعار والخزى في التاريخ هى تلك التى سميت باسم صكوك الغفران ، وهى صكوك تبيعها الكنيسة لمن يدفع ثمنها على أن تغفر ذنوبه كلها بشرائها.

يقول الصك :

(ربنا يسوع يرحمك يا ..ويشملك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع

(١) انظر : راسل تاريخ الفلسفة الغربية ٢/ ١٦٩ وما بعدها .

القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها ، وأيضا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ، ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها علي نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر ، وأردك حديثا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة ، وأقرنك فى شركة القديسين، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى إنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الفرح ، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الأب والابن والروح القدس).(١)

ومن الطبيعى أن تترتب نتائج خطيرة على تلك الصكوك منها : التشجيع علي الجريمة ومن ثم ازدياد نسبتها في المجتمع بشكل مخيف ، إذ ما الذى يمنع الإنسان من ارتكابها، والعفو عنها متيسر بالمال، فقد يختلس أو يسرق مثلا ضعف ما يريد سرقته ، لكى يمنح جزءا منه لغفران خطئه .

ومنها : تزايد حقد الفقراء وكراهيتهم للأغنياء والدين فى آن

(١) انظر : محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص ٦٣-٦٤.

واحد، واعتبار الدين فى خدمة الغنى ضد الفقير الذى خسر الدنيا والأخرة معا .

وعلى كل حال فإن الكنيسة ورجالها ملكوا من الأموال والعبيد والأراضى مالم يكن يملكه ملك من الملوك آنذاك .

ويذكر ويل ديورانت المؤرخ الإنجليزى الشهير أن مجموع دخل الكنيسة في روما في عام ١٢٥٠ م كان أضعاف دخول الحكومات الملكية الأوروبية ، أما فى عام ١٢٥٢ فقد كان الذى حصلت عليه من انجلترا ثلاثة أضعاف دخل خزينة ملك انجلترا نفسها[١] وكانت الكنائس والأديرة والصومعات تملك أحيانا عشرات من المدن الصغيرة مع مدينة أو مدينتين كبيرتين فى بعض البلاد [٢]، ففى اسبانيا كانت الكنيسة تملك ربع المملكة وفى إنجلترا خمسها وفي ألمانيا ثلثها[٣].

(وكان دير " سانت جول " يملك ألفين من رقيق الأرض وكان الكوين فيتور أحد رجال الدين سيد العشرين ألفا من أرقاء الأرض وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة والأديرة وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية .. وهكذا أصبحت الكنيسة جزءا من

(١) انظر ويل ديوارنت : تاريخ الحضارة : الترجمة الفارسية : ترجمة أبى القاسم الطاهرى ١٣/ ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق ١٣/ ٣٦٣.

(٣) المصدر السابق ١٣/ ٣٦٤.

النظام الإقطاعى).

(وكانت أملاكها الزمنية ، أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى متمسك بدينه وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدرا للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات [1]).

ولم يقتصر فساد الكنيسة ورجالها على جمع الأموال بكل الطرق دون الاعتناء بمصادرها ، أو النظر فيما إذا كانت حلالا أم حراما وإنما شمل كذلك الفساد الخلقى والجنسى (فقد بلغ التبذل والاسفاف غايتهما فى أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والإخلاء إلى الترف والتساقط علي الشهوات فى حدتها وشدتها ، كانت الدنيا تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى ، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور.

(إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما ، حتى كانوا يؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ... [2]).

(وبين أيدينا أوثق كتاب عن الأديرة هو كتاب " الديارات "

---

(١) انظر : محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٢ .

(٢) اقرأ فى ذلك : أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين صفحة ١٨٨ و ١٨٩ بتصرف واختصار ، وقد نقل الندوى ذلك عن مفكرى وبعض الرهبان النصارى من أمثال ليكى والراهب جيروم.

للشابوشتى المتوفى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨م) وقد حققه الباحث المسيحى كوركيس عواد معتمداً على نسخة خطية كانت عند الأب ((أنستاس مارى الكرملى)) نقلها بيده عن النسخة المصورة بالفوتوغراف عن المخطوطة الوحيدة للكتاب فى خزانة كتب برلين ، وذكر الأستاذ كوركيس عواد أن البطريرك (مار ارناطيوس) أمده بمزيد من المعلومات عن الديارات السوريانية التي تحدث عنها الشابوشتى ،وقد نشرت هذه الإضافات فى ذيول الكتاب ، وكل هذا يجعل ما ورد فى الكتاب من أحداث عن الديارات موضع تسليم من جميع الباحثين.

ويتحدث محقق الكتاب في مقدمته عن أن الأديرة كانت مجالات للأنس والطرب ومواطن للنزهة واللهو ، وأن كل دير من الديارات كان محصنا بسور مكين شاهق يدفع عنه شر الهجمات ، وبقية غائلة المعتدين عليه ، وربما جاز لنا أن نقول إن هذه الأسوار كانت تخفى ما يدور بداخل الديارات من انحرافات وأسرار.

والديارات التي تكلم عنها الشابوشتى هى ثلاثة وخمسون ديرا أكثرها بالعراق (٣٧ ديرا) وبعضها بالشام (١٣ ديرا) ومصر (٩) والجزيرة (٤) وقد شملها الانحراف جميعا مما يدل على أن الأديرة في أى موقع كانت قد رحبت بهذا اللون المنحرف من الحياة ، فكأن الانحراف كان جزءا مهما من أعمالها وأنشطتها [١]).

(١) انظر د .أحمد شلبى : المسيحية ص٢٤٨.

وصدق الله جل شأنه القـــــائل : (ورهبـــــانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون)[1].

الطغيان والصراع السياسي:

وإذا كان كل ما ذكرناه آنفا - وهو غيض من فيض - يتعلق بجشع رجال الدين والكنيسة واستغلالهم للدين لكسب المنافع المادية والتكالب على متاع الحياة الدنيا ، فإنهم لم يكتفوا بذلك وإنما دخلوا فى الصراع مع الملوك والأباطرة لأجل المكاسب السياسية .

فبناء على النصوص التى أضيفت في الأناجيل والتى أشرنا إليها أصدر البابا نقولا بيانا قال فيه :

(إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل ، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو

---

(١) سورة الحديد آية ٢٧، وقوله تعالى : إلا ابتغاء رضوان الله ، فيه قولان : أحدهما أنهم قصدوا بذلك رضوان الله تعالى قاله سعيد بن جبير وقتاده ، والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ، وقوله تعالى ﴿ فما رعوها حق رعايتها﴾ أى فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله والثانى: فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عزوجل . انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣١٥.

محكومين)[1].

ومن هنا دار الصراع بين هؤلاء البابوات وبين الملوك كانت الغلبة في الفترة الأولى من العصور الوسطى للبابوات حتى كان الملوك يأتونهم راكعين صاغرين طالبين العفو والغفران ، ثم دارت الدوائر عليهم فكانت الغلبة لخصومهم من الملوك الذين كانوا أحيانا يضعون البابوات في السجون أو يكتفون بعزلهم معلنين أنهم هم أصحاب الحق الإلهى دون البابوات[2].

ومن أمثلة الصراع السياسى بين البابوات والملوك مما يدل على جشع البابوات وتعطشهم للسلطة حادثة طريفة فى التاريخ المسيحى اشتهرت بحادثة "كانوسا"[*] لا تزال عالقة فى الأذهان لمغزاها وطرافتها ولندع الفيلسوف البريطانى الشهير برتراندراسل يذكرها لنا بشئ من التفصيل ، فقد وقع خلاف علي منصب كبير الأساقفة في

(١) انظر : ويل ديورانت : قصة الحضارة ١٤/ ٣٥٢.

(٢) وهذا يعنى أن كلا الطرفين كانا يحكمان حسب الحق الإلهى الممنوح لهما بالادعاء وليس بناء على رضا الشعب أو البيعة ، فلم يكن بالتالى للشعب أن يعزل الحاكم أو يحاسبه علي أخطائه وهذا ما يسمى بالحكومة الثيوقراطية أو الحكومة الإلهية التى استبدلتها أوروبا بعد ذلك بالنظام النيابى الديمقراطى وهو يختلف تماما عن الحكومة الإسلامية التي يخضع فيها الحاكم للقانون والشرع ويأتى برضا الأمة . انظر: د. عبد الكريم زيدان : الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية ص ٢١ وما بعدها ، انظر د. ثروت بدوى : النظم السياسية ص ١٥٣ وما بعدها.

(*) انظر : تاريخ الفلسفة الغربية ٢/ ١٧٨-١٧٩ وانظر تفاصيل ذلك عند ويل ديورانت : تاريخ الحضارة : الترجمة الفارسية - كتاب جهارم عصر إيمان : بخش سوم ص٣٩٨ وما بعدها وسميت الحادثة باسم كانوسا وهى قلعة إيطالية وقعت فيها الحادثة .

ميلان أدى إلى حادثة "كانوسا" ففى سنة ١٠٧٥ عين الإمبراطور كبير الأساقفة بموافقة معاونيه ، فاعتبر البابا ذلك اعتداء على حقوقه ، وهدد الإمبراطور بإخراجه من التبعية للكنيسة وبالخلع ؛ فرد الإمبراطور على ذلك بجمع مجلس من الأساقفة فى (ورمز). وهناك أعلن الأساقفة خروجهم على الولاء للبابا ،وكتبوا إليه خطابا يتهمونه فيه بالزنا والحنث فى اليمين وبما هو شر من هذا وذاك ، وهو سوء معاملته للأساقفة ، وكذلك أرسل إليه الإمبراطور خطابا ، يزعم فيه أنه فوق كل قضاء على هذه الأرض ؛ وأعلن الأمبراطور وأساقفته خلع البابا ، فقرر البابا إخراج الإمبراطور وأساقفته من التبعية للكنيسة ، وأعلن أنهم أصبحوا مخلوعين عن مناصبهم وبهذا تم إعداد المسرح للحوادث:

وكان النصر فى الفصل الأول من الرواية ، للبابا ؛ فالسكسون الذين كانوا من قبل قد ثاروا على (هنرى الرابع)[1] ثم عادوا فعقدوا معه الصلح ، وثاروا عليه من جديد ، وتحالف الأساقفة الألمان مع (جريجورى) ، واهتز العالم كله هزة عنيفة للطريقة التى عامل بها الإمبراطور البابا، ونتيجة لهذا كله ، قرر هنرى فى العام التالى (١٠٧٧) أن ينشد الغفران لدى البابا ، وفى أعماق الشتاء ، راح هو

(١) وقد حكم الأمبراطورية الجرمانية من ١٠٥٦-١١٠٥ ، وهنري هو اسم ،حمله عدد من الأباطرة وملوك أوربا فى الدول الأوربية المختلفة . انظر : المنجد في اللغة والأعلام حرف (هـ) ومنهم هنرى الثانى الذى حكم انجلترا من ١١٥٤ حتى ١١٨٩ وقد حدثت له الحادثة المماثلة الثانية أما المقصود من البابا هنا فهو البابا جريجوري السابع.

وزوجته وابنهما الرضيع ، ومعهم طائفة قليلة من الأتباع ، يعبرون ممر (مونت سنيس) ووقف ضارعا أمام قلعة كانوسا ، حيث كان البابا مقيما ، فتركه البابا أمام القلعة ثلاثة أيام ، حافى القدمين ، مرتديا رداء التوبة ، وأخيرا سمح له بالدخول ؛ فلما تاب وحلف اليمين بأن يتبع فى مقبل الأيام ما يأمر به البابا ، فى علاقته بمعارضيه من الألمان ، غفر له وقبل من جديد عضوا فى الجماعة المسيحية .

وحدث الشئ نفسه تقريبا ولكن فى بريطانيا [1] بعد حوالى قرن من الحادثة الأولى ، فقد حصل نزاع بين الملك هنرى الثانى وتوماس بكت رئيس أساقفة كنتر برى [2] ، ثم اغتيل الأخير فثارت الكنيسة حتى اعتزل الملك ثم جاء إلي كنتربرى حاجا مظهرا ندمه وسار الأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق على الحجر الصوان حافي القدمين حتى دميت قدماه ثم استلقى على الأرض أمام قبر رئيس الأساقفة المقتول وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط .

محاكم التفتيش وإحراق الناس أحياء:

وكان من الطبيعى بعد ذلك كله ، أن يكون لهذا الطغيان والغطرسة على رقاب العباد والأموال رد فعل لدى الناس فى صورة

---

(١) انظر محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٦٥ بتصرف .
وانظر فى هذا المعنى : ويل ديورانت : تاريخ الحضارة : الترجمة الفارسية : كتاب جهارم ، عصر إيمان بخش جهارم صفة ٣٥٣.

(٢) كنتر برى هى مدينة في انجلترا تقع جنوب شرق لندن وهو مركز رئيس أساقفة الأنجليكان ، مشهور بكاتدرائيتها ، انظر المنجد حرف (هـ).

حركات تمرد وعصيان وظهور ملحدين للوقوف ضد الكنيسة وممارستها ورجالها ولا سيما بعد أن اختلط النصارى بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة كما يقول ويل ديورانت[1] في أعقاب الحروب الصليبية أو عن طريق حضور أفواج من طلبة العلم ينهلون من الجامعات الإسلامية فى قرطبة وغرناطة وبغداد.. الخ إذ شاهدوا حضارة جديدة ومجتمعا جديدا بعيدا عن التعقيدات والألغاز والرهبنة ونظاما اجتماعيا لا يعرف الاستغلال والطغيان وصكوك الغفران .. وتمثلت ردود الأفعال هذه في صورة تكوين جماعات للتمرد على سلطان الكنيسة المطلق ورجالها الذين لم يجعلهم كل ذلك يعيدون النظر في سلوكهم ومواقفهم وطريقة عرضهم للعقائد الدينية وإنما زادهم بطشا وإرهابا فأسسوا ما سمى في التاريخ باسم محاكم التفتيش التي كانت تفتش عن عقائد الناس في قلوبهم ، وعن نواياهم الداخلية لمعرفة مدى ولائهم أو عدم ولائهم للكنيسة ، فقدنشأت محاكم التفتيش على يدى البابا جريجورى التاسع عام[2] ١٢٢٧ ويتضح الهدف الأساسى من تلك المحاكم من خلال القرار الذى أصدره نيكولاى الثالث عام ١٢٨٠م.

(نحن نكفر ونعلن كل الطوائف الإلحادية ، ومن يتوب منهم بعد

---

(١) انظر : تاريخ الحضارة : الترجمة الفارسية : فصل : محاكم التفتيش ، كتاب جهارم ، بخش جهارم ص ٣٨٩ وما بعدها.

(٢) ويل ديورانت : تاريخ تمدن - كتاب جهارم ، عصر إيمان ، بخش جهارم أوج مسيحيت، ترجمة : أبو القاسم طاهرى صفحة٣٨٨و ٣٨٩.

القبض عليه يحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، وكل من يساعد هؤلاء أو يتستر عليهم يحاكمون مثلهم ، كما أن كل من يكفن أو يدفن موتاهم حسب الشريعة النصرانية يحكم بتكفيره إلا إذا تاب وأخرج الميت من قبره ورمى جسده خارج القبر وهذا أيضا يكون جزاء كل من يناقش القضايا الدينية الكاثولوكية على كل من عنده علم بمن يجتمعون سرا أو ليسوا على مذهب الكاثوليكية الصحيحة أن يبلغ عنهم وإلا حكم عليه بالتكفير)[1] .

وكثيرا ما كان المحققون يستخدمون أبشع أنواع التعذيب لانتزاع الاعتراف من المتهمين الذين كثيرا ما يلفظون أنفاسهم تحت التعذيب[2] .

وقد قرر مجمع (لانران) أن يكون من وسائل الإطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكى أمام القسيس فى الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها).

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدى القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه فى بيته ، وما يظهره في أعماله بين أهله . فإذا وجد القسيس متلقى الاعتراف شيئا من الشبهة فى طلب العلم غير

---

(١) ويل ديورانت : تاريخ تمدن - كتاب جهارم ، عصر إيمان ، بخش جهارم أوج مسيحيت، ترجم : أبو القاسم طاهرى صفحة ٣٩٠ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٣٩٤-٣٩٥ وما بعدهما .

المقدس على من سأل عنه رفع أمره إلى المحكمة ،فينقض شهاب التهمة عليه ، فإذا سئل عن الشاهد الذى عول عليه فى اتهامه لا يجاب ، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد ، وهو من أهله حتى يعترف .

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل أوربا ما خيل لكل من يلمع فى ذهنه شئ من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه ، وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ، ومن ورود الفكرة العلمية إليه ، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : (يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه) (١).

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها في القرن الثالث عشر إلى سنة ١٨٠٨ على ٣٤٠٫٠٠٠ نسمة ، منهم نحو مائتى ألف أحرقوا بالنار أحياء (٢).

يقول ويلز(٣) : المؤرخ الإنجليزى الشهيرعن محاكم التفتيش وإصدارها أحكام الإعدام :(شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة هى محكمة التفتيش البابوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم فى بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد فى هذا الإقليم أو ذاك ، ولكن (إنوسنت

(١) انظر : محمد عبده : الإسلام والنصرانية ص ٣١.
(٢) المصدر السابق . وانظر : ويل ديورانت : تاريخ تمدن بخش جهارم ص ٣٩٦.
(٣) انظر : محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة .

الثالث) وجد الآن في عقد الرهبان الدومينيكين الجديد أداة قوية للقمع، ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم ، وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنسانى بالنار والعذاب ، وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد فى السيادة على العالم ، وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرا بالملاحدة والكفار ، فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون فى مئة ساحة من ساحات الأسواق في أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها - وهم فى غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم - تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة ، وتحترق وتخمد معهم فى نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشريةفتصبح رمادا تذروه الرياح.

ومن الجدير بالذكر أنه نشأ فى القرن السادس عشر الميلادى المذهب البروتستانتى أو الحركة الإصلاحية فى النصرانية أو ما عرف بالإصلاح الدينى وأشهر روادها مارتن لوثر القسيس الألمانى (١٤٨٢)، وأهم ما قام به إلغاء الرهبنة وإلغاء احتكار تفسير الكتاب المقدس من قبل رجال الدين ، ولكنها أى حركة الإصلاح الدينى لم تسر فى منطقها إلى مداها الأقصى[1] فبقيت أركان النصرانية كالتثليث والصلب، والعشاء الربانى ...الخ وسائر خرافات النصرانية على حالها دون أن يمسها تغيير يذكر ، وإلا لم تكن أوربا تدخل نفق المادية المظلم بالتفصيل الذى سيأتى ، وقد أشرنا آنفا أنها هى الأخرى قد قاومت

(١) أبو زهرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٧٢ ، دار الفكر العربى ط٣.

العلم وحاربت العلماء إبان ظهورها . علما بأن مـارتن لوثر قد استفاد - علي الراجح - من الإسـلام ومـعتـقـداته في أحسـن ما جـاء به من الإصلاح[1] .

(١) اقرأ فى ذلك :" مجلة الاجتهاد " التخصصية بحث : أمين الخولى ص ٤١١ وما بعدها - بيروت - دار الاجتهاد عدد ٣١-٣٢.

أسباب ترتبط بنشأة التيارات المادية

وقد كان من الطبيعى بعد كل ما حدث فى أوربا من قبل الكنيسة ورجالها أن يطالب الأوروبيون برفع القيود والأغلال التي كبلت بها الكنيسة الفكر والحرية والحركة والعلم جميعا ، رافعين ما سمي بالعلمانية أى الفصل بين الدين والحياة [1]، إلا أن ترك الدين هذا لم يحدث فجأة وإنما جاء بالتدريج فقد جاء فلاسفة ومفكرون يؤمنون بالله ويؤمنون بالدين لكنهم لا يوافقون الممارسات الكنسية التي كانت تحدث آنذاك والتى أوضحناها آنفا وبالتالى شقوا طريقا مخالفا للكنيسة وممارستها ورجالها ، إلا أن منهجهم وطريقهم أدت بالتدريج إلى ظهور تيارات أكثر تطرفا حتى ظهرت تيارات ملحدة تماما تحظى بتأييد جمع غفير من الناس.

ولهذا يعتبر الباحثون فى هذا المجال الفيلسوف الإنجليزى الشهير جون لوك (١٦٣٢ -١٧٠٤) أول من دعى إلى ترك الدين كحركة

---

(١) هذه هى الترجمة الصحيحة لكلمة Sexulasism فى الإنجليزية وليس فصل الدين عن الدولة فقط تقول دائرة المعارف البريطانية : إنها حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها. " وظل هذا الاتجاه يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية (انظر سفر الحوالى : العلمانية ص ٢٢ يقول المعجم الوسيط إن العلمانية تعنى العلم بمعنى العالم وهى ضد الدينية والكهنوتية (المعجم الوسيط حرف ع) ولهذا قسم بعض الباحثين العلمانية إلى معتدلة وهى السائدة فى الدول الغربية التي تطالب بتحجيم دور الدين وعلمانية متطرفة وهى السائدة فى الدول الشيوعية التي تطالب بالقضاء على الأديان قضاء مبرما (انظر : سفر الحوالى : العلمانية).

فلسفية فكرية،وقد كان لوك معاصرا لجاليلو واسحاق نيوتن اللذين أوضحنا صراعهما مع الكنيسة آنفا ، وقد استخلص النتائج الفكرية والفلسفية التي توصل إليها كل منهما مطالبا بحرية العقيدة التي يجب أن تكون شخصية . ولا يجوز فرضها على الأفراد أيا كانت السلطة التي تفرضها[1] فقد فرق كل من جاليلو ونيوتن بين نوعين من الظواهر أو الصفات فهناك صفات موجودة في الأشياء أى أنها جزء من طبيعتها كالحجم والشكل وتلك هى الصفات التى يهتم بها علم الطبيعة.

بينما هناك ظواهر أو صفات لا توجد فى الأشياء المادية أو الطبيعية الخارجة عن الإنسان وإنما توجد في الإنسان نفسه عندما يتصل بتلك الأشياء أو الطبيعة ويتأثر بها وذلك كالحرارة والطعم والرائحة واللون ... الخ .

وهذه المجموعة من الصفات أو الظواهر - عكس المجموعة الأولى - لا يهتم بها علم الطبيعة ولا يكون له شأن بها [2].

جاء لوك فتساءل عن العلاقةبين النوعية من الصفات وأدى به ذلك إلى التساؤل عن العلاقة بين الإنسان والطبيعة ثم إلى التساؤل عن طبيعة الإنسان نفسه الذى توجد فيه - دون سواه - تلك الصفات التي

(١) انظر د. زكى نجيب محمود : حياة الفكر فى العالم الجديد ص ١٤ وما بعدها - دار الشروق - القاهرة ط٣، ١٩٨٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٥ وما بعدها .

أشرنا إليها .

وتوصل لوك من خلال دراسته إلى التفرقة بين الإنسان والطبيعة ، فالإنسان لا بد أن يكون مغايرا أو مختلفا فى طبيعته عن حقيقة وطبائع الأشياء المادية ، هو يشكل العنصر العقلى ، وعقله مغاير عن الطبيعة ، وهو إنسان بعقله لا بجسده الذى هو جزء من الطبيعة والأشياء المادية ، يسرى عليه ما يسرى عليها من القوانين (١).

أما عقله فلا يخضع لتلك القوانين بل هو خالد لا يموت ، مستقل بوجوده لا يتوقف على أى شئ مادى أو عقلى آخر .

وهو - أي عقل الإنسان - منبع العقيدة ، وصوابها مرهون بما يمليه هذا العقل ولا دخل لأحد سواه فى ذلك ، فهو وحده الذى يحكم بصواب عقيدته أو ضلالها ، ويستحيل علي إنسان آخر في الدنيا بأسرها أن يهديه فى ذلك إذا لم يهده عقله وضميره الذى يعد وحده المشرع لصاحبه وحكم فى صوابه أو ضلاله .

ولا يجوز للسلطان المدنى - أو أى سلطان آخر - أن يتدخل فى عقيدة أى فرد من الأفراد ، لأن له عنصرا عقليا خاصا به لا يشركه فيه إنسان آخر سفل أو علا(٢) .

---

(١) انظر د. زكى نجيب محمود : حياة الفكر فى العالم الجديد ص ١٥ وما بعدها - دار الشروق - القاهرة ط٣، ١٩٨٧ .

(١) المصدر السابق .

"ورأى لوك أن كل فرد له الحق فى أن يعتقد ويؤمن بملء حريته ، ولا خوف أو تردد ، وفى أن الحرية الدينية والشخصية يجب أن تكون مكفولة للجميع فليس للكنيسة الحق فى أن تضطهد أى شخص بسبب عقيدته ، كما أنه ليس للدولة مثل هذا الحق ، إذ أن الكنيسة فى نظره لا تمثل إلا نوعا من التنظيم الإدارى للمجتمعات وخاصة من الناحية الروحيةالدينية - وحال الشخص الذى يخضع لها كحال الشخص المنضم لأحد أندية الكريكيت - ليس له الحق فى اضطهاده بل كل ما هناك استبعاده عنه إذا انحرف عن تعاليمه أو خرج على نظمه وقواعده.

" وبالطريقة نفسها للدولة أن ترغم الناس على عقيدة معينة ولا أن تتدخل فى عباداتهم أو مذاهبهم ، ولا أن تتحيز لمذهب دون آخر، فكلما كان المذهب الدينى أقرب إلى الحق كان أبعد عن حاجته إلى مساعدة الدولة له "(١) .

" إنا لا يمكن أن نجزم بيقين فيما يتعلق بآرائنا الدينية بحيث نقطع بأنها هى الصحيحة بينما آراء الآخرين مخطئة ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإنه من الصعب أن نتحامل على الآخرين لمجرد أنهم لا يعتقدون فى آرائنا (٢)، وهكذا أكد لوك استقلالية العقل وفرديته ومصدريته للعقيدة وأنه لا سلطة أو سيطرة لأية جهة كانت على عقل الإنسان وعقيدته

(١) انظر د. زكى نجيب محمود : حياة الفكر فى العالم الجديد ص ١٥ وما بعدها - دار الشروق - القاهرة ط٣، ١٩٨٧.

(٢) انظر د. عزمى إسلام : جون لوك ٢١٢و ٢١٣ بتصرف .

التي يجب أن تكفل حريتها التامة للناس أجمعين .

وإذا كانت الكنيسة ورجالها يعتبرون أنفسهم كما رأينا من قبل نوابا عن الله يحكمون الناس جميعا - حكاما ومحكومين باسمه تعالى ويشرعون لهم ما يشاءون من التشريعات ، ثم انتقلت هذه السلطة ، سلطة التشريع والحكومة باسم الرب أو ما يسمى بالحكومة الإلهية أو الثيوقراطية من رجال الكنيسة إلى الملوك والحكام ، - فإن جون لوك - بناء عل المبادئ والأسس التي وضعها لا يبيح أن يشرع شخص أو جهة لغيرها ، ذلك لأن الإنسان الفرد بحكم طبيعته العقلية حر حرية مطلقة ، مستقل بذاته (*)، فلا يجوز لأحد - مهما كان - أن يشرع ، لغيره في القوانين المدنية تفرض عليه من الخارج بغض النظر عن رضاه وإنما هى - أى تلك القوانين - عرف يتفق عليه الأفراد ، وأغلبية الآراء هى السند الذى يستند إليه القانون المدنى .

وليس هناك ما يبرر قيام الحكومة أو الدولة نفسها إلا رضا الأفراد الذين اتفقوا على أن تقوم فيهم دولة تصون حقوقهم ، فأساس الحكومة هو موافقة المحكومين على قيامها فقط(١)" وليس لأحد أن يحكم باسم

(*) يرى لوك أن كل عنصر عقلى منفرد مستقل عن زميله ، فهو يتخذ من فكرة الفردية أساسا لفكرة الحرية ويرفض الأفكار الفطرية، وكان لذلك الأثر الكبير في التبشير بالمساواة بين الناس . انظر : عزمى إسلام : جون لوك ص ٢٨-٢٩ ، وانظر برتراندراسل : تاريخ الفلسفة الغربية ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى ٣/ ١٧٨ وما بعدها ، ويرد لوك على فيلمر المدافع عن الحق الإلهى - المصدر السابق ص ١٩٢ وما بعدها.

(١) المصدر السابق .

الإله أو الرب يستوى فى ذلك رجال الكنيسة والملوك جميعا .

" وقد دافع لوك عن هذا الرأى بقوة في عصره ، وهرب لأجل ذلك من بلده إلى هولندا حتى نجحت الثورة الإنجليزية وسقطت حكومة الملك جيمس الثاني آخر ملوك أسرة اسيتورات الاستبدادية الذى كان يتمسك بنظرية حق الملوك المقدس فى الحكم .

" واعتبر لوك فيلسوف الثورة والأدب الروحى لها والمبشر بمبادئها التى تدعو إلى حكومة مدنية وسقوط الحكومة الثيوقراطية " (١).

وطالب لوك باخضاع الوحى للعقل عند التعارض قائلا : من استبعد العقل ليفسح للوحى مجالا فقد أطفأ نور كليهما ، وكان مثله كمثل من يقنع إنسانا بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق "(٢) .

وبذلك انعكس الوضع فبعد أن كان الوحى أو بالأحرى تفسير الكنيسة للوحى ، ينقد العقل ويقيده ويحاكمه ويحكم عليه ، أصبح الوحى نفسه تحت مجهر ومنظار العقل لينقده، الأمر الذى كشف عن كثير من التناقضات والتحريفات المنتشرة فى الكتاب المقدس وذلك بواسطة العلماء والمفكرين .

ومن الجدير بالذكر أن مارتن لوثر زعيم ومؤسس البروتستانية قد

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر : سفر الحوالى ص ١٥٤ .

دعا من قبل إلى قراءة الكتاب المقدس دون التقيد بتفاسير رجال الكنيسة من الكاثوليك .

وكان لأفكار لوك تأثير مباشر فى جميع أنحاء أوربا بل الولايات المتحدة الأمريكية التي أخذت عنه المبادئ التي قامت عليها وثيقة الاستقلال .(١)

وتأثر الكتاب والمفكرون الفرنسيون مثل فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو بلوك فقد تبنى فولتير أفكاره عن الحرية والتسامح وظل طوال حياته يهاجم كل تعصب وخاصة الدينى منه وينادى بالحرية ، وتمادى مع غيره في نقد الدين والسخرية منه .

بينما أخذ روسو عنه نظرية العقد الاجتماعى كما أخذ عنه مونتسكيو نظريته فى فصل السلطات (٢).

ومهد هؤلاء الكتاب للثورة الفرنسية التى تمخضت عن نتائج بالغة الأهمية ، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب وليس باسم الله ، وعلى حرية التدين بدلا من الكثلكة ، وحلت الثورة الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان والراهبات وصادرت أموال الكنيسة وألغت

---

(١) د. زكى نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد ص ١١، ١٢.
و انظر : راسل : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ١٧٠ وما بعدها .

(٢) انظر د. عزمى إسلام : جون لوك ، بتصرف ،والثلاثة (روسو ، ومونتسكيو ، وفولتير ، من مفكرى القرن الثامن عشر) .

كل امتيازاتها ، وحاربت العقائد الدينية علنا وبشدة ، وأصبح رجل الدين الذى كان يحكم باسم الرب الحكام والمحكومين معا مجرد موظف مدنى لدى الحكومة [1] . لقد طالب لوك بإخضاع الدين والنصوص الدينية للعقل ولم يطاب بإلغاءالدين كله مما يدل على بعض احترامه للوحي الذى اعتبره نورا - كما ذكرنا - كما استدل لوك فى بعض كتبه على وجود الله تعالى [2] مما جعل الباحثين يعتبرون علمانيته ، علمانية معتدلة ، إلا أن أفكاره - كما أشرنا - أدت إلى ظهور تيارات وأفكار متطرفة ضد الدين ، ومن أهم ما قاله لوك هو إعلان خلو العقل البشرى وفراغه من أية فكرة مسبقة لم تمر على الحواس الإنسانية من قبل فلا يوجد فى العقل شئ .

أى أن العقل البشرى لم يعد - كما كان يظن من قبل - المصدر الأول والوحيد للمعرفة اليقينية وإنما أصبح مجرد متلق يتلقى المعرفة أو عناصر المعرفة الأولى من الحواس التى حلت محله .

وكان ذلك يعني أن المعرفة اليقينية أو اليقين فى المعرفة تأتى عن طريق الحواس ، أما العقل فوعاء فارغ يستقبل ما ترسل إليه الحواس . وهذا يعنى أيضا استبعاد كل القضايا التى لاتخضع للحواس ولا توجد في الطبيعة المحسوسة ، من نطاق العلم والمعرفة ، ومنها قضايا الدين

(١) انظر : سفر الحوالى : العلمانية.

(٢) انظر : راسل : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ١٧٧ و ١٧٤ .

من وجود الله تعالى والرسل واليوم الآخر .. الخ فهى قضايا لا يمكن التثبت أو التأكد من صحتها بوسائل العلم المعروفة لديهم من الملاحظة والتجربة والحواس ، والإنسان حر فى أن يؤمن أو لا يؤمن بها .

وجاء الفيلسوف الإنجليزى الشهير ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦) ليهدم قضية أخرى من القضايا المتصلة بالدين وما وراء الطبيعة ، هى قضية السببية التي أنكر وجودها فى الطبيعة وما وراء الطبيعة معا ، فلا يصح عنده أن يقال إن هذا سبب كذا وكذا ، لأن الإنسان لا يشاهد فى الطبيعة إلا التعاقب والتتابع بين الظواهر والأشياء حيث تأتى ظاهرة ما بعد ظاهرة أخرى ، وتليها ظاهرة ثالثة وهكذا .. الخ ، هذا كل ما نستطيع أن نقوله ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن هذه الظاهرة التي سبقت تلك ، لهى سبب فى التى تلتها أو هى الأخرى سبب فيما بعدها .. لأن المشاهدة والحواس ، وهى - أي الحواس - مصدر المعرفة تشاهد التتابع والتلاحق ولا تشاهد السببية ولا تستطيع أن تحكم بها .

وعلى هذا كل ما كان يقوله الفلاسفة والمفكرون قبل ذلك عن الأسباب والعلل والمعلولات ، وعن سبب الكون وعلته ... لا أصل لها وأن ما نسميه بالعلاقة بين السبب والمسبب والعلة والمعلوم إنما يرجع إلى العادة .

ولنستمع إليه يقول :[1]

" افرض أن شخصا - رغم كونه موهوبا بأقوى ملكات العقل والتفكير - قد جئ به فجأة إلى هذا العالم ؛ فإنه وإن يكن سيلاحظ من فوره تتابعا في الأشياء متصلا،وأن حادثة تتبع أخرى ،إلا أنه لن يستطيع أن يلحظ وراء هذا الحدث شيئا فلن يستطيع للوهلة الأولى أن يدرك فكرة السبب والمسبب مهما تكن وسيلته العقلية إلى ذلك ، وذلك لأن القوى الخاصة التي يفعلها تتم العمليات الطبيعية كلها،لا تظهر أبدا للحواس،وليس من المعقول أن نستنتج أنه ما دامت حادثة ما فى سياق معين قد سبقت أخرى،إذا فلابد أن تكون الأولى سببا والثانية مسببا،إذا قد يكون ارتباطهما جزافا وعرضا ؛ وقد لا يكون هناك مبرر من العقل أن نستدل على وجود إحداهما من ظهور الأخرى .

(ثم افرض أنه قد حصل خبرة أوسع ، وعاش فى العالم أمدا أتاح له أن يلاحظ أن الأشياء أو الحوادث المألوفة إنما يرتبط بعضها ببعض ارتباطا لا يتخلف فماذا ينتج عن هذه الخبرة ؟ إنه لا يلبث أن يستدل على وجود شئ ما من ظهور شئ آخر؛ومع ذلك فإن خبرته كلها لا

(١) انظر : ديفيد هيوم : مقاله فى العقل البشرى نقلا عن د. زكى نجيب محمود : ديفيد هيوم ص ١٨٢ وما بعدها باختصار وتصرف .
ومن الجدير بالذكر أن الفكر الإسلامى قد سبق الفكر الغربى (هيوم)في نقد العقلية . وذلك عن طريق أبى حامد الغزالى ، صاحب كتاب "الأحياء" وتهافت الفلاسفة . انظر : الغزالى ٢٣٥-٢٣٦ ، انظر د. سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالى ٢٥٢- ٢٥٤ وما بعدها .

تمكنه من إدراك أية فكرة أو معرفة بالقوة الخفية التى بها ينتج الشئ السابق شيئا لاحقا ؛ كلا وليس هنالك عملية عقلية واحدة تضطره أن يستدل ظهور اللاحق من وجود السابق ؛ ولكنه رغم ذلك يجد ألا محيص له عن هذا الاستدلال ؛ وعلى الرغم من وجوب اقتناعه بأن العقل لا دخل له في هذه العملية ، إلا أنه مع ذلك يمضى في نفس هذا المجرى من التفكير ؛ فثمة مبدأ آخر يضطره أن ينتهى إلى مثل هذه النتيجة . هذا المبدأ هو "العادة".

((وهكذا فإنه إذا ارتبط شيئان ارتباطا لا تخلف فيه ، كالحرارة واللهب مثلا ، أو الثقل والصلابة ، فإن العادة وحدها عندئذ تقتضينا أن نتوقع أحد الشيئين إذا ما ظهر الآخر)).

فإن صح كلام ديفيد هيوم - وهو غير صحيح مطلقا - فإن الدين وأساسه الإيمان بالله - كسبب لوجود الكون ، يخرج عن نطاق العلم والبحث العلمى ، وذلك لعدم وجود العلاقة بين السبب والمسبب فى الأصل ، وإن ما نظنه من العلاقة بينهما إنما يرجع إلى العادة فقط .

وأهم وأشهر من التقط من ديفيد هيوم هذه الإشارة هو الفيلسوف الفرنسى الشهير أوجست كونت صاحب الفلسفة الوضعية القائلة بنظرية الأطوار الثلاثة، إذ يرى أن المجتمع الإنسانى في تفكيره وتطوره العقلى لا بد أن يمر بثلاث مراحل أو حالات أو أطوار.

المرحلة اللاهوتية، والمرحلة الميتافيزيقية ، والمرحلة الوضعية.

(والإنسان فى المرحلة اللاهوتية يفسر الظواهر الطبيعية - لقلة المعلومات لديه- لا بما تشهده حواسه ويقع له فى تجربته ، بل بما يسعفه به خياله المتوقد النشيط ، وليس أقرب إلى الخيال فى مثل هذه المرحلة من أن يفترض لكل شئ ذاتا كذاته هو (الإنسان)نفسا كنفسه ، فإذا نمت شجرة فهى إنما نمت كما ينمو الإنسان نفسه بدافع ذاتى من باطنه، وهكذا قل فى النجوم إذا عبرت السماء وفى النهر إذا تدفق وفى المطر إذانزل ..)[1] .

أى أن الإنسان فى هذه المرحلة يدرك جميع أنواع النشاط على غرار نشاطه الخاص ، فإذا أراد فهم الظواهر ماثل بينها وبين أفعاله[2] .

ويطلق علي هذه الظاهرة في التفكيراسم مذهب التشبيه [3].

وفى هذه المرحلة كان الإنسان يرجع كل شئ إلى الآلهة ، وبالتالى كان كل شئ يمكن الحدوث وفى الوقت نفسه لا يوجد شئ أو حدث ضرورى أولا يحدث شئ بالضرورة ، إذ يكفى فى حدوثه أو عدم حدوثه أن تريد الآلهة ذلك أو لا تريده .

والإنسان لا يستطيع التأثير فى الطبيعة تأثيرا مباشرا [4]، فهو لا

---

(١) انظر : د. زكى نجيب محمود : نحو فلسفة علمية ص ٤٤ وما بعدها باختصار وتصرف وهو رائد الفلسفة الوضعية المنطقية في العالم العربى ، وهى أى الفلسفة الوضعية المنطقية امتداد الفلسفة الوضعية ، وانظر للفرق بينهما المصدر السابق وكتاب الموقف من الميتافيزيقيا للمؤلف نفسه وقد نشر الكتاب من قبل باسم خرافة الميتافيزيقيا .

(٢) انظر . د. فاروق عبد المعطى : أوجست كونت - دار الكتب العلمية ص ١٣٣ .

(٣) المصدرالسابق ص ١٣٠ . (٤) المصدرالسابق .

يقدر أن يغير من مجرى الأمرى شيئا ، وما عليه إزاء الظواهر الطبيعية التى تحدث سوى أن يستسلم[١] ولكنه يستطيع كل شئ بطريقة مباشرة، إذ يكفى فى ذلك أن يتقرب إلى القوى الإلهية التى تعد رغبتها قانونا [٢]، وهو القانون الوحيد الذي كان يعرفه الإنسان ويفسر الأحداث والظواهر الطبيعية على أساسه .

ومن هنا نعرف أن موضوع الاهتمام كان فى هذه المرحلة هو تفسير الظواهر الطبيعية وتعليلها وكان المنهج المستخدم فى ذلك هو الخيال .

ثم أتي حين من الدهر بدت فيه هذه الطريقة فى التفكير طريقة بالية وضارة وذلك لأن العقل الإنساني يميل إلى أن يحتل من تفسير الطبيعة مكان الخيال وهي المرحلة الميتافيزيقية ، " فيكون تفسير الظواهر لا بافتراض كائن روحانى وراء الظاهرة بل برد الظاهرة إلى مبدأ أو إلى فكرة أولى أو إلى قوة غير مشخصة في الذات[٣] كقوة النمو والمرونة والحيوية" وذلك كفرض (الأثير) الذى يستخدم فى علم الطبعية لتفسير الظواهر الضوئية أو الكهربائية أو فرض (المبدأ الحيوى) فى علم وظائف الأعضاء أو فرض الروح فى علم النفس "[٤].

---

(١) انظر د. زكى نجيب محمود :نحو فلسفة علمية ص ٤٤.
(٢) انظر د. فاروق : أوجست كونت ص ١٣٦.
(٣) انظر د. زكي نجيب محمود : نحو فلسفة علمية .
(٤) انظر : د. فاروق : أوجست كونت ص ١٣٠.

أى أن الإنسان بدأ يفسر الأشياء ، والأحداث إلى علل مجردة خفية تكمن فى باطن الأشياء والطبيعة نفسها ، فانتقل من الخيال إلى الاستدلال وحجاج منطقى يعلو من النتيجة إلى مقدمتها أو يهبط من المقدمة إلى نتيجتها .

أما في المرحلة الثالثة فلم يعد الإنسان يبحث عن علل أولى يرد إليها الطبيعة وما فيها بل يبحث عن قوانين تصور الأطراد الملحوظ في الظواهر الطبيعية .

هذه هي نظرية الحالات أو الأطوار الثلاثة التي تؤدى إلى القول بأن دور الدين انتهى وأنه كما يقول د. عبد الله دراز [1]" يمثل الحالة البدائية التي تلهث بها الإنسانية فى مرحلة طفولتها ، فلما كبرت عن الطوق خلعتها لتستبدل بها ثوبا وسطا فى دور مراهقتها حتى إذا ما بلغت أشدها واكتمل رشدها أخذت حلتها الأخيرة من العلوم التجريبية " وهى المرحلة التي يكف فيها الإنسان عن البحث فى علل الأشياء وأسبابها ومنها علة الكون وخالقه وموجده، ويكتفى بتسجيل الظواهر الطبيعية ، وعلى هذا فالذى يفكر بمنطق العلل والأسباب ، ويعيد تفسير الأحداث والأشياء إلى الآلهة أو إلي الله ، إنما يعيش - حسب رأى الفلسفة الوضعية - فى عصر غير عصره رجوعا قهقريا إلى الوراء .

---

(١) د. عبد الله دراز : الدين : ٨٤-٨٥.

وقد تطورت الفلسفة الوضعية فيمابعد إلى الفلسفة الوضعية المنطقية التي تهتم بتحليل اللغة والكلمات التى نـنطق بها ، لكى تقول إن الكلمات الـتي لا تدل علي شئ واقع فى الخارج إنما هى جوفاء أو على حد تعبيرها هراء لا تستحق الاهتمام بل إنها لا ترقى إلى مستوى يطلق عليها كلمة (الخطأ) لأن الخطأ مهما كان يعنى شيئا مفهومًا ، أما الكلمات التى تعبر عن أمور الغيب وما بعد أو ما وراء الطبيعة فإنها لا تعني شيئا أصلا .

وكتب الدكتور زكى نجيب محمود فى هذا المجال كتابه الشهير خرافة الميتافيزيقيا أى خرافة ما وراء الطبيعة(*) .

وهو رائد من رواد هذه الفلسفة فى العالم العربى .

ويشرح الفرق بين هذه المدرسة والمدرسة الوضعية فيقول (١): فلو سأل سائل لماذا يجب الكف عن النظر إلى ما وراء الحس ؟ " كان جواب أوجست كونت هو أنه لا يفيد ؛ أما جوابنا نحن فهو : لأن الكلام عندئذ سيخلو من المعنى ، فالمذهب الوضعى عند (كونت) يجعل العبارات علي أساس (منطقى) لا على أساس النفع وعدمه ، إذ يبين لنا التحليل المنطقى لتلك العبارات أنها أشباه عبارات تخدع بتركيبها النحوى السليم، لكنها فى حقيقة أمرها لا تؤدي مهمة الكلام ،

(*) وقد طبع هذا الكتاب أخيرا بعنوان آخر هو الموقف من الميتافيزيقيا كما ذكرنا في الحاشية السابقة .

(١) نحو فلسفة علمية ص ٥٠.

وهى الإخبار ، لأنها لا تحمل معنى على الإطلاق تخبر به .

" وكذلك لا تنظر (الوضعية المنطقية) إلى الأفكار نظرة تاريخية كما فعل (كونت)؛ فليست الفكرة عندها معتمدة على ظروفها التاريخية ، بحيث تصلح اليوم بعد أن لم تكن صالحة بالأمس ، بل الأمر موكول كله إلى تحليل اللفظ الدال على الفكرة تحليلا منطقيا لا يعرف فوارق الزمن ؛ فلا مانع- مثلا - من تناول فكرة ميتافيزيقية من فلسفة أفلاطون ، كقوله بخلود الروح ، وتحليل لفظها تحليلا ينتهى إلى أنه لفظ فارغ بغير معنى ، مهما يكن من صلاحية مثل هذا القول فى زمنه".

جاء بعد ذلك تشارلز داروين صاحب كتاب أصل الأنواع لكى يقول بالتطور ولكن ليس تطور المجتمعات كماقال كونت (وإنما تطور الكائنات الحية كلها بما فيها الإنسان من خلية حية واحدة ، فالكائنات الحية كلها لم تخلق كل نوع منها مستقلا عن الأنواع الأخرى وإنما هى خلية واحدة حية تطورت ثم تطورت حتى وجدت أنواع وأجناس الحيوانات والكائنات الحية الأخرى ، والإنسان نفسه يعتبر نهاية هذه السلسلة من التطور ، أى أنه كائن حَيٌّ تطور عن القردة العليا مع فاصل تطورى تصوره ، ولم يعثر عليه ، فسماه الحلقة المفقودة وهى الحلقة الوسيطة بين القرد والإنسان.(١)

(١) انظر : تراث الإنسانية :" المجلد الثانى ص ٩٨٢ ، وقد أثبتت الدراسات الحديثة كذب هذا الادعاء ، يقول د. عبد الهادى مصباح عضو أكاديمية نيويورك للعلوم ==

وبدا ذلك إنكارا لقضية خلق آدم عليه السلام الذى ورد فى الكتب السماوية كلها .

وذهب داروين قدما لكي ينكر يد الخالق تعالي فى هذا التطور فقال (١): ((والانتخاب الطبيعى أهم عامل فى حدوث التغييرات التي طرأت على الأنواع وإن لم يكن العامل الوحيد .

وإن النظام الذى نراه فى الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية ولكن نتيجة للتوافق أو للتكييف بين أعضاء الكائن الداخلية وبين ظروف البيئة التي يعيش فيها)).

وهذا يعنى ، - أول ما يعنى - محاولة إبطال دليل النظام فى الكون الذى تستند إليه بعض الأدلة على وجود الله تعالى .

==والجمعية الأمريكية لتطوير العلوم ، لقد بدأت محاولات العلماء لتتبع تسلسل الصفات الوراثية والجينات لإثبات النسب وتسلسل الأبوة والأمومة والوصول إلى شجرة العائلة البشرية من خلال تحلل الحامض النووى للإنسان منذ ما يقرب من أربعين عاما ، إلا أن التقدم التكنولوجى المذهل الذي حدث خلال العشر سنوات الماضية قد مكن العلماء من الوصول إلى نتائج هائلة فى هذا المجال ، وأهم الاكتشافات العلمية فى تلك الفترة هى اكتشاف تحليل الحامض النووى للإنسان (D.N.A) والذي يطلق عليه البصمة الجينية أو سر الكون ، ومن خلاله يتم متابعة أثر شجرة العائلة البشرية وقد أثبتت هذه التحاليل أن آدم وحواء قد هبطا في أفريقيا منذ فترة تتراوح ما بين ١٥٠-٢٠٠ ألف عام مضت ، وأن البشر جميعا ينحدرون من سلالة رجل واحد وامرأة واحدة هما آدم وحواء.

انظر : القبس ٣٠/ ١٢/ ١٩٩٨ العدد ٩١٧٢.

(١) انظر : تراث الإنسانية - المجلد الثانى ص ٩٨٢.

كما أنه يعنى إنكار التدبير فى الكون ، فالتطور الذى تم إنما تم عشوائيا حسب التوافق والتكييف وليس حسب الإرادة الإلهية .

والتدبير - شأنه شأن النظام - من أهم الأدلة التى اعتمد عليها العلماء والفلاسفة المسلمون والنصارى في الاستدلال علي وجود الله تعالي ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن داروين ملحدا شأن من تحدثنا عنهم آنفا من المفكرين فقد أكد بقوة قبل موته ببضع سنوات أنه لم يكن ملحدا قائلا :((لقد ترددت كثيرا في حياتى بين كثير من المعتقدات وتأرجحت عاطفتى الدينية كثيرا بين الصعود والهبوط ، ولكنى فى أشد اللحظات ترددا لم أشعر قط بأني كنت ملحدا ولم أنكر قط وجود الله ... [1]).

ومع ذلك فقد أثار رأيه كما هائلا من التساؤلات بين المثقفين والجمهور معا أهمها أنه إذا كان الإنسان في الأصل حيوانا فما مقياس الخطأ والصواب فى أعماله ؟ وما معنى الضوابط المفروضة على سلوكه؟ وأين مكان العقيدة فى تركيبه ؟ وما مصير دليل التدبير ودليل النظام ؟ وكيف كان آدم وكيف خلق ؟

والتقط ماركس إشارة التطور من (كونت)و (داروين) ، ولكن التطور لديه ليس مثل التطور لدى (كونت) تطور المجتمعات من حيث الحالة المعرفية أو العقلية ، وليس مثل تطور داروين القائل بأن الكائنات

(١) تراث الإنسانية - المجلد الثانى ٩٧٦ بحث د، سيد بدوى .

كلها تنشأ من خلية واحدة حية، وليس مثل التطور عند هيجل القائل بالصراع بين الأضداد في عالم الفكر ، وإنما التطور عند ماركس هو تطور المادة من خلال الصراع بين النقيضين ، فالكائنات كلها ، حيوانها وجمادها ونباتها وإنسانها فراد ومجتمعا ، مادة ، تخضع لهذا القانون ، فلا إله ولا خالق .

ويمكن أن نقول إن الماركسية التي تعد المادية الجدلية[1] بمثابة العقيدة والأساس فيها ، تقوم علي الأسس التالية :

---

(١) وإنما يرجع معني الجدل إلى الفيلسوف اليوناني : سقراط ، وكان الجدل يعنى عنده طرح أسئلة منظمة علي المحاور تستدرجه إجابتها إلى ما يهدف إليه السائل من الحقائق فكأنها كانت كامنة في نفس المحاور فأخرجها.
انظر مثلا محاورات أفلاطون : ترجمة د. زكى نجيب محمود - لجنة التأليف - القاهرة .
وقد نقل هيجل الفيلسوف الألمانى الشهير فى العصر الحديث هذا المعنى إلى مفهوم آخر، فقال، إن الجدل هو الصراع الذى يتم داخل الفكر ، بين الفكرة وضدها ، فينتج فكرة ثالثة تحمل بدورها ضدها فينتج رابعة وهكذا .. الخ .
وكل هذا يتم عند هيجل فى عالم الأفكار حتي يصل الفكر إلى ما لا ضد له وهو المطلق وهو الله سبحانه وتعالى الذى صدر عنه العالم كله .
وهيجل مثالى يرى أن المادة أو الطبيعة هى انعكاس للفكر ، والعالم صادر عن الله (المطلق) كما ذكرنا .
(انظر . مثلا : د. زكى نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة ص ٢٣٥ وما بعدها - لجنة التأليف).
وعلي هذا نستطيع أن نقول إن الجدلية أو الديالكتيكية تعنى ضرورة التطور من خلال الصراع بين الضدين أو النقيضين اللذين يوجدان في المعنى أو الفكر ينتج عن هذا الصراع شئ ثالث وهكذا .
فلما جاء ماركس لم يفعل شيئا سوى تطبيق المنهج نفسه على مجال المادة التى لا توجد عنده غيرها وجودا حقيقيا وسميت الشيوعية بهذا الاسم لدعوتها إلى أن تكون ==

١ - إن المادة أزلية قديمة موجودة منذ الأزل لم يوجدها موجد ولا خالق، بل هى خالق ، وموجد كل ما فى الوجود ، ولا وجود وجودا حقيقيا لغيره ، وكل ما نسميه من المعنى أو العقل أو الروح .. الخ ناشئ عنها تابع في وجوده لها ، أما هي فليست ناشئة عن شئ.(١)

٢ - إن كل ما ذكرناه والذى يشمل جميع الموجودات ، نشأ عن المادة من خلال تطورها وبعبارة أخرى فإن المادة أصل الأشياء وينبوع الحقائق وأصلها .

٣ - والمادة - كل مادة - بما فيها المادة الأولى - تحمل فى طياتها ضدين أو نقيضين (٢).

٤ - وأن القانون الذى يتم بموجبه التطور هو الصراع بين النقيضين الموجودين داخل المادة، ينتج عنه شئ ثالث يختلف عن كل منهما

== الملكية مشاعة بين الناس جميعا ولا تكون هناك ملكيات فردية ، كما أنها سميت بالماركسية نسبة إلى مؤسسها كارل هنريك ماركس (١٨١٣ - ١٨٨٣) اليهودى الألمانى الذى وضع مع صديقه انجلز دستور الحزب الشيوعى فى عام ١٧٤٨ .

أما الذى طبق الماركسية عمليا وأسس أول دولة شيوعية فى العالم فهو فلاديمير بوليانوف المشهور بلينين الذى ولد عام ١٨٧٠ فى روسيا وقد واجه - عند تطبيقه للماركسية - صعوبات جمة جعلت من المستحيل تطبيقها بالكامل فأحدث فيها تغيرات ، سميت النظرية فى ضوئها وضوء تغيرات أخرى أحدثها خليفته الدكتاتور ستالين بالماركسية اللينية.

(١) انظر د. رمضان البوطى : نقض أوهام المادية الجدلية - ص ٣٠ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق .

وفى الوقت نفسه يشبه كلا منهما ، ويحمل بدوره نقيضين لينشب الصراع بينهما وهكذا إلى ما لا نهاية .. إلى أن يتسع الكون وتوجد الموجودات كلها .

فالمادية الجدلية تتلخص فى : التطور من خلال الصراع بين النقيضين (١).

وتسمى الماركسية ذلك بالأطروحة ثم الطباق أو النفى الأول ثم نفي النفى ويتضح ذلك من خلال المثال التالى :

(إن انبثاق حبة الحنطة فى الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو الإنبات ، هو ما نعنيه بالأطروحة ، فإذا انعكس عن تلك العوامل النبات الأخضر المتصاعد، فهو الطباق ، أى النفي الأول . ثم إذا عاد النبات سنبلاً متراكبا من الحنطة فذلك هو التركيب ، أى نفى النفى ، إنه تركيب الأطروحة مع النتيجة التي جاءت معها متوافقة .. ثم إن حبات تلك السنبلة ما تلبث هى الأخرى أن يتحول كل منها إلى أطروحة من جديد .. وهكذا دواليك .

ونستهدى بهذا المثال ، لتفهم هذه الفلسفة فى مثال آخر أدق .

إنه صراع الخلايا فى جسم الإنسان أو الحيوان ، فالخلية الواحدة تنبثق من داخلها عوامل تفتتها وفنائها بعد حين ، هذه هي الأطروحة ،

---

(١) انظر د. رمضان البوطى : نقض أوهام المادية الجدلية - ص ٣٠ وما بعدها

ذلك لأنها تحمل بموجب ذلك نفسه، عوامل ظهور خلية جديدة أخرى، وهذه العوامل ، إذ يبدأ ميلادها هي الطباق، فإذا انبثقت من تلك العوامل الخلية الجديدة التي تحل محل سابقتها فذلك هو التركيب الذى يسمونه أيضا بنفى النفى ». (١).

٥- فالمادة الأولى الأزلية القديمة تطورت وتحركت ربما عشرات الألوف من السنين حتى وجدت الحياة فيها أى أصبحنا أمام المادة الحية (٢).

ومعنى ذلك أن المادة أذلية قديمة والحياة حادثة .

ثم تطورت المادة الحية حتى وجد الإنسان كنموذج متطور راق للمادة الحية وعند ذلك توقف التطور ، وهكذا فإن الكائنات كلها مادة

---

(١) انظر د. سعيد رمضان البوطى : نقض أوهام المادية الجدلية ص ٣٢.

(٢) وهنا نجد ظل الداروينية وكتابها أصل الأنواع ». والفرق بينهما أن داروين طبق التطور الي الأفضل (البقاء للأصلح) مبتدئا بالخلية الحية الأولى أى فى عالم الأحياء ، بينما طبقه ماركس وبدأ بالمادة التي تطورت فأصبحت مادة حية فيما بعد ، ومن هنا تؤمن الداروينية بالله تعالى الخلاق دون الماركسية على الرغم مما يترتب على الداروينية ، وعلى الرغم من أن الماركسيين يستدلون بنظرية داروين إلا أنها أى الداروينية تعتقد بالتحول التدريجى وليس بالقفزة كما هى الحال فى المادية الجدلية ، مما يبطل استدلالهم بها (انظر د. رمضان البوطى ص٨٢) ومما جعل ماركس لا يقبل هذا الجزء من الماركسية (انظر وحيد الدين خان : سقوط الماركسية ص ٧٣) على أن داروين نفسه فى أصل الأنواع يعترف بوجود أمثلة عن حيوانات منذ العصر الجليدى كما هى اليوم (انظر المصادر السابقة) مما يدل ذلك على بطلان النظرية وعدم قدرتها على تفسير كل الأمثلة والإجابة عن الأسئلة التى تدور حولها .

(٢) اقرأ فى ذلك : راسل : حكمة الغرب ٣/ ٢٣٠.

وأنها جميعا نشأت عن التطور الحاصل من الصراع بين الضدين أو النقيضين داخل المادة .

المادة التاريخية:

لقد تصور ماركس أن هذا الصراع أو الجدل الذى يدور داخل المادة ، وبفضله تتطور من حالة إلى أخرى ، و نفسه الذى يدور بين البشر والمجتمعات البشرية أيضا ، لاختلاف وتناقض مصالحها إذ لا فرق بينهما ، فالكل مادة وهى أصل كل شئ وقانونها ينطبق علي الجميع ، فإذا كانت الأشياء المادية تتطور عن طريق الصراع بين الضدين أو النقيضين اللذين يوجدان داخل تلك الأشياء نفسها كما تقرر المادية الجدلية ، فإن المجتمعات البشرية كذلك تتطور عن طريق الصراع بين طبقتين داخل تلك المجتمعات [1]، وتنتقل من مرحلة تاريخية إلى أخرى ومنها إلى ثالثة .. حتي تقف أو تصل إلى المرحلة الشيوعية التي تنتفى عندها الطبقات ويصبح المجتمع كله طبقة واحدة .

ويسمى ذلك بالمادية التاريخية ، أما أنه مادية فلأن التطور يتم حسب نفس قانون التطور فى الجمادات بل فى الأشياء كلها ، والأشياء كلها مادة عندالماركسية كما عرفنا وليس للإنسان أو القيم أو الدين أو الإله أى دور في هذا التطور فالإله نفسه من صنع الإنسان ، والإنسان نفسه يخضع لهذا القانون المادى وحده ، ولا يملك إزاءه أى تغيير سوى

---

(١) انظر : وحيد الدين خان : سقوط الماركسية ص ٣٧ و ٣٨ بتصرف.

التسليم والخضوع والفهم فقط فالتغيير حاصل لا محالة ، ونفس الطريقة والترتيب الذى يذكره ماركس فى كل المجتمعات ، رغب فيه الإنسان أو لم يرغب وهو ما تسميه الماركسية بالحتمية التاريخية .

وأما أنها تاريخية فلأن المجتمعات البشرية تنتقل بحسبها وحدها من مرحلة تاريخية إلى أخرى .

فالمادة أو الأقتصاد وحده دون غيره هو محرك التاريخ والأحداث وبه تختفي وتتلاشى المجتمعات لتظهر مكانها مجتمعات أخرى، ومراحل لتحل مكانها مراحل أخرى.

ولقد تأثر ماركس في ذلك بالوضع السائد في أوروبا من التناقض الحاد بين العمال من جهة وأصحاب المصانع من جهة أخرى ، فقد تأثر على حد تعبير راسل [1] (بالقسوة المروعة للنظام الصناعى كما كان موجودا فى إنجلترا فى عصره، وهذا ما عرفه معرفة كاملة عن طريق انجلز)، إذ كان العامل في القرن التاسع عشر في إنجلترا مجرد عبد بأجر زهيد يعمل لسيده من ١٦ إلى ٢٠ ساعة في اليوم لقاء أجر لا يكاد يكفيه وأسرته وكان رأسمالي القرن التاسع عشر يمتص الثروة من عرق العمال وحياتهم بدون شك، وقد وصف ماركس هذا الوضع بقوله : إن العامل لا يملك لحياته شيئا سوى لقيمات جافة، وملابس بالية، وكوخ مظلم، وانطلق ماركس يجمع قصص ظلم الرأسماليين

(١) انظر : راسل : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ٤٢٩ باختصار وتصرف.

بالتفصيل في كتابه الرأسمالية، وقد وصف أحد المفكرين الإشتراكيين هذا الجزء من عمل ماركس بقوله : إن أفضل أجزاء كتاب الرأسمال هي تلك التي تناقش الوقائع الاقتصادية التى كان ماركس يعرفها معرفة موسوعية .

وفيما يلى مثال من أمثلة الوقائع التي جمعها ماركس في كتابه :

نشرت صحيفة لندن اليومية فى الأسبوع الأخير من يونيو سنة ١٨٦٢ خبرا مثيرا ، بعنوان وفاة بسبب كثرة العمل . وكان هذا الخبر يتعلق بفتاة تبلغ العشرين من عمرها ، وتسمى مارى آن واكلى التي كانت تصنع القلانس النسائية وكانت تعمل فى مصنع مشهور للملابس الجاهزة ، وكانت امرأة تحمل اسم (إيليزيه) الجميل هى التى تستغل هذه الفتاة ، فكانت مارى تعمل نحو ست عشرة ساعة ونصف ساعة يوميا فى الأيام العادية ، ونحو عشرين ساعة عند اقتراب الأعياد والمواسم ، وكان استخدام الشاي والقهوة يساعد قوتها المتهالكة على الاستمرار فى العمل ، وكان الموسم - الآن - فى عنفوانه وكان على المصنع أن يجهز الملابس الفاخرة لبنات الأثرياء اللواتى سمح لهن بالرقص بمناسبة مجئ أميرة ويلز الجديدة ، وعملت مارى لمدة ست وعشرين ساعة ونصف ساعة متواصلة ، وكانت معها ٦٠ فتاة أخرى ، وكانت ثلاثون من هؤلاء يعملن فى حجرة واحدة ، وهكذا كانت كل فتاة تحصل على ثلث قدم مكعب من الهواء ، وكانت هذه الفتيات

تقضى الليالى فى سرادب ضيقة ، قسموها بواسطة قطع خشبية لإيجاد أماكن النوم بها . وقال الطبيب الذى عـاينها : إن مارى ماتت من جراء العمل الزائد فى حـجرة مكتظة بالناس ، وبسـبب النوم فى مكان ضيق ومظلم ، ولكن هيئة المحلفين قضت بأنهـا ماتت بالصرع ، مع ملاحظة أن موتهـا يمكن أن يكون قد تعـجل ، بسبب العـمل في حجـرة مكتظة والعمل الزائد)[1] .

والتاريخ البشرى ، حسب المادية التـاريخية يمر بخمس مراحل أو أطوار هى :

* الشيوعية الأولى .

* والرق .

* والإقطاع .

* والرأسمالية .

* والشيوعية الثانية أو الأخيرة .

والشيوعية - سواء فى حالتها البدائية الأولى أو حالتها أو طورها الأخـير الذى لا بد أن ينتـهى إليـه الإنسان - هى الأصل أو هي الحـالة الأصليـة التى تتـميـز بعـدم وجـود ملكيـة لشئ على الإطلاق ، فـالأرض ملك

(١) انظر : وحيد الدين خان : سقوط الماركسية ص ٣٧و ٣٨ بتصرف .

للقبيلة بأكملها والطعام يتناوله الجميع معا وكل النساء لكل الرجال على السواء .

" وكلما يكشف الإنسان وسيلة من وسائل الإنتاج يتطور من مرحلة إلى أخرى "[1] ، فعندما اكتشف الزراعة بدأ يخزن لنفسه ما يفوق حاجته من الغذاء والحبوب ، وإزاء ذلك كان هناك من لا يستطيع إلى ذلك سبيلا بل لا يستطيع أن يجد قوت يومه ، فكان يستدين فيتحول إلى الرقيق أو العبد عند تراكم الديون عليه ، أو كانت تنشب حروب بين أصحاب الملكية الفردية أو الذين يملكون والذين لا يملكون فيتحول المهزوم إلى العبد .

هكذا كان ظهور أو نشأة الزراعة كوسيلة من وسائل الإنتاج سببا فى ظهور طبقتين فى المجتمع ونشأة الصراع ، وهما : طبقة الملاك أو من يملكون ، وطبقة المعدمين الذين لا يملكون ، مما أدى بدوره إلي مرحلة تاريخية جديدة هى مرحلة أو طور الرق .

ثم نشب الصراع بين الرقيق والأسياد ، وتم - في الوقت نفسه - اختراع المحراث الذى استطاع الإنسان بواسطته أن يزرع مساحات شاسعة أكثر مما كان يزرعه في الطور السابق ، فنشأ مجتمع جديد أو مرحلة جديدة هى مرحلة الإقطاع كان طرفا الصراع فيه الإقطاعيون والفلاحين .

---

(١) انظر : راسل : تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ٤٢٩ باختصار وتصرف .

ثم نشب الصراع بين الإقطاعيين والفلاحين ، وتم - في الوقت نفسه - اختراع الآلة فنشأت الرأسمالية التى انتقلت فيها صورة الملكية الفردية من مليكة زراعية إقطاعية إلى ملكية صناعية رأسمالية وكان طرفا الصراع فيها أصحاب المصانع والعمال .

ثم ينشب ، الصراع الحتمى بين أصحاب المصانع ورؤوس الأموال من جهة وبين العمال من جهة أخرى فينشأ المجتمع الاشتراكى الممهد للمجتمع الشيوعى وهو المستقر الأخير للبشرية التي تعود فيه إلى طورها الأصلي الأول(١).

أما إذا نعدمت الملكية وأصبحت مشاعة هى والنساء معا فلا تبقى هناك دوافع لارتكاب الجرائم (٢).

---

(١) انظر : محمد قطب :مذاهب فكرية معاصرة ١٠١-١٠٢ باختصار وتصرف .

(٢) على أن هناك من الفلاسفة من قال بشيوعية الأموال والنساء قبل ماركس بمئات السنين مثل افلاطون (انظر أفلاطون : الجمهورية : ترجمة د.، فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية ١٩٧٤ صفحة ٣٥٦ - ٣٦٠ وقارن بـ ١٠٤ مقدمة الترجمة).
وللشيوعية تطبيقات أخرى في البلاد الشيوعية الأخرى فهناك التطبيق الماوى (نسبة إلى ماوتسى تونغ) للماركسية ،التى يرى أن النظام الماركسى الروسى قد انحرف عن خط لينين وماركس ، ومن اعتراضاته عليه أن الروس يبيعون الأسلحة التى لا ينبغى أن تباع إذا كانت الدولة المشترية بحاجة فعلية إليها تدافع عن أرضها وسيادتها ، ومن ذلك أن الروس يتقاضون فوائد مرتفعة على القروض التى يقدمونها لمن يسمونهم بالأصدقاء ، ولا ينبغى أن تتقاضى دولة ماركسية لينينية أموالا في صورة أرباح من دول صديقة ، علما بأن الصين اليوم قد عدل كثيرا عن هذا النظام ، وتعامل دول العالم بما تعاملها به روسيا وسائر الدول .
وهناك تطبيقات أخرى للشيوعية عند الأحزاب الشيوعية في البلاد الأوربية ، فبينما تنص الماركسية على ضرورة الصراع والثورة للتحول من النظام الرأسمالى إلى النظام الاشتراكى ، تعدل هذه الأحزاب هذا الرأى الماركسى بما يسمى بيورو كونيزم==

بقى أن نقول إنه لا يمكن أن فهم المادية التاريخية على حقيقتها إلا بمعرفة أصلين أساسيين وهما :

أ - إن القيم والأخلاق والتقاليد كلها تتغير بتغير الأطوار والمراحل فقيم المجتمع الزراعى تختلف وتتبدل عندما يدخل المجتمع إلى طور الإقطاع ، والقيم والأخلاقيات السائدة في هذا التطور - طور

==أو الشيوعية الأوربية التي تدعو إلى الأخذ بالماركسية مع إسقاط نظرية الثورة والصراع والدعوة إلى أن يكون التحول بالطرق النيابية والبرلمانية ونظام الانتخابات ، وبعض الأحزاب الشيوعية التي قد تحمل أسامى أخرى تنظر إلى الشيوعية كنظام اقتصادى فقط أى تدعو إلى الأخذ بالمنهج الاقتصادى الاشتراكى ومحاربة الإمبريالية والاستعمار مع إسقاط الجوانب الإلحادية فيها ، ولاشك أن ذلك خطأ منهجى - إن صدق دعاته - فالشيوعية كل متكامل والنظام الاقتصادى جزء من فلسفة ماركس المتكاملة.وتلك الأحزاب تدعى - جهلا أو عنادا - أن الشيوعية لا تتنافى مع الأديان ومنها الإسلام .

ومن الغريب أن الشباب القاطنين فى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى السابق كانوا يقولون إنهم شيوعيون مسلمون معتقدين - خطأ وجهلا - عدم التعارض بين الإسلام والشيوعية ، وهم فى الأصل شيوعيون مؤمنون بماركس وتعاليمه الإلحادية ولكنهم يقصدون من كلمة مسلم أنهم ينتمون إلى أصول تركية أو فارسية أو تاجكية ... الخ أو سائر الأصول والقوميات التي كانت تدين بلادها بالاسلام ، قبل تأسيس الاتحاد السوفيتى ، وقد نشأ عن ذلك خطأ صارخ فادح فى الإحصائيات التي كانت تنشرها وزارات الداخلية المتعاقبة عن نسبة ارتكاب الجرائم فى الاتحاد السوفيتى السابق وهى القائلة بأن تلك النسبة مرتفعة جدا في المناطق ذات الأغلبية المسلمة ، وسبب الخطأ كما عرفنا أن هؤلاء وإن كانوا ينتمون إلى جنسيات تركية أو فارسية أو أزبكية - ليسوا مسلمين وإنما هم ماركسيون شيوعيون يرتكبون الجرائم وتنسبها وزارات الداخلية إلى الإسلام ظلما وزورا.

وقد يحدث الخطأ أن تلك الوزارات الماركسية تعتبر الصلاة والصيام أو تعدد الزوجات ... الخ جرائم حسب المنطق الشيوعى .

الإقطاع ، تتبدل عندما يدخل المجتمع إلى طور الرأسمالية ، وقل الشئ نفسه في الشيوعية . علي أن هذا التغير والتبدل فى القيم يأتى تلقائيا حتميا نتيجة التغيير فى وسائل الإنتاج والصراع بين الطبقات ، كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، وليس نتيجة الدين أو الإله أو أي عامل آخر .

فهى أى تلك القيم انعكاس لأوضاع مادية اقتصادية ، فالفلاح مثلا فى المجتمع الزراعى يضع البذرة فى الأرض ولكنه لا يستطيع أن يقيها من الآفات والتأثيرات الجوية المختلفة ولهذا يفترض وجود قوة غيبية عليا يكل إليها الأمر كله ويحاول أن يرضيها عن طريق القرابين والنسك ... الخ .

وبالتالى فإن قيمة التدين وما ينشأ عنها من العبادات والطقوس تكون نتيجة وانعكاسا للعامل المادى الاقتصادى .

وينطبق ذلك أيضا على نظرة الناس إلى المرأة ، فالرجل فى المجتمع الزراعى ينفق على الزوجة والأولاد ، ولهذا يسيطرعلى المرأة وتنشأ عن ذلك قضية العفة والمحافظة على العرض.

إما إذا ما تحول المجتمع الزراعى إلى المجتع الصناعى المتطور تغير الأمر بالكلية فالعامل هنا يتولى عملية الإنتاج بنفسه والمرأة تستقل اقتصاديا ، لأنها تعمل شأنها شأن الرجل، وبذلك يقل دور الدين وتقل سيطرة الرجل على المرأة في المجتمع الصناعى ، وتقل معها كل ما ينشأ عن ذلك من مفاهيم وقيم .

أما إذا تحول المجتمع الصناعى إلى المجتمع الشيوعي أو إلى الطور الشيوعى فيقل دور الدين وسيطرة الرجل على المرأة إلي أن يلغى إلغاء كاملا .

هكذا تتبع التغيرات المادية الاقتصادية تغييرات وتبدلات في القيم والأخلاق والعادات والتقاليد التي تعد مجرد انعكاس للتغيرات المادية(١) .

ب - إن كل مرحلة أو طور من هذه الأطوار أحسن وأفضل من سابقتها وأسوأ من لاحقتها ، وبالتالى فالحكم على كل منها أمر نسبى ولهذافإن المطالبة بالأحسن وليس بالأسوأ ضرورية . فالمطالبة مثلا بإقامة الديمقراطية البرجوازية فى ظروف القيصرية والمجتمع البرجوازى مثلا فى روسيا شئ مفهوم وصحيح تماما ، إلا أن تلك المطالبة فى المرحلة الشيوعية خطأ وغير صحيح لأنها تعد خطوة إلى الوراء وليس إلى الأمام(٢) .

وإذا كان الإنسان فى نظر داروين نموذجا متطورا من الحيوانات الأخرى كما رأينا، فإن النظرية أو بالأحرى الفرض ، تبقى الإنسان فى سلم الكائنات الحية بل فى قمتها ، فلا هو مادة - فى الداروينية - ولا ينطبق عليه قوانينها ، وإنما يمكن أن يدرس فى إطار عالم الأحياء

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٨٩ وما بعدها ، وانظر أيضا في هذا المعنى : راسل حكمة الغرب :٢/ ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق .

والكائنات الحية .

نعم إذا كان الأمر كذلك فى نظر داروين فإن ماركس دحرج الإنسان أكثر عن مرحلة الحيوانية إلى مرحلة المادة التي أنشأت الإنسان وهى خالقة له ، ينطبق عليه ما ينطبق على سائر الجمادات من القوانين ، وبالتالى تأتى خطورة الماركسية أنها تؤصل الإلحاد وتضع لها بنية ثقافية فكرية ، تفسر وجود الكون والحياة والإنسان دون الحاجة إلى الاعتقاد بالله الخالق بل ترى الماركسية أن الإنسان هو الذى خلق الله لأنه - أي الخالق والعياذ بالله - من وهم الإنسان وخياله أو هو من صنعه ، ولا سيما الأغنياء منهم الذين يريدون أن يحولوا بين الفقراء وثورتهم ضدهم بأفكار مثل الخالق أو يوم الحساب والبعث والجنة.. الخ - حتى إذا ما وقع الظلم علي الفقير ، يطالبه الدين باسم تلك الأفكار والمعتقدات بالصبر الذى يضمن له فى الآخرة أضعاف أضعاف ما خسره نتيجة الظلم الواقع عليه ، وبالتالى يتم تخديره وإسكاته للحيلولة دون الصراع الضرورى بينه وبين الغنى كأساس وجوهر للتقدم والتطور.

ومن هنا جاءت مقولة الماركسية : الدين أفيون الشعوب ، وبالتالى فإن الماركسية لم تقف مثل المذاهب السابقة موقف الحياد من الدين ، أو طالبت بتحجيم دوره فى إطار العلاقة بين الإنسان وخالقه ، وإنما طالبت بالقضاء عليه قضاء مبرما ، إذ لا يوجد - فى رأيها أصلا ما يسمى بالخالق .

بناء دول تنشر الإلحاد :

علي أن خطر الشيوعية الماركسية علي الدين لم يقتصر علي المجال الفكرى والفلسفى فقط ، وإنما تجاوز ذلك بمئات المرات عندما بني أول دولة ماركسية شيوعية علي أيدى فلاديمير لينين عام ١٩١٧ في روسيا التى ضمت إليها دولا أخرى سميت بالاتحاد السوفيتى ، وأصبح الاتحاد السوفييتى - خلال سنوات قليلة - ليست دولة عظمى فقط بل إحدي القوتين العظميين فى العالم . سخرت جميع إمكانياتها السياسية والفكرية والاقتصادية لنشر الإلحاد والقضاء على الدين ليس فى حدود بلادها فقط وإنما فى العالم كله عن طريق مئات المراكز الثقافية المنتشرة في الشرق والغرب توزع كتب الإلحاد والأفلام الإلحادية .

علي أن أخطر وسائل نشر الإلحاد والكفر التي استخدمها هو الانقلابات التى كانت تقوم على أيدى أنصارها في البلاد الشرقية عامة والإسلامية خاصة .

كان ذلك الانتشار يوحى بقوة بانتصار الماركسية في حل مشاكل الإنسان فردا ومجتمعا ، وأنها تقيم العدل والمساواة بين البشر ، حتى أصبح الاتحاد السوفييتى فى نظر الكثيرين من الشباب سواء فى الشرق أو فى الغرب الجنة الموعودة فتهافت عليه وعلى قراءة الماركسبة ملايين الشباب من جميع أنحاء العالم الذين عانوا ما عانوا من ويلات

الرأسمالية التى كان الإنسان يسحق فيها سحقا تحت عجلات مصانعها دون رحمة أو هوادة ، حتى قامت الثورة الماركسية الشيوعية في الصين عام ١٩٤٥ معلنة حكومتها الثورية الاستبدادية على حوالى ربع سكان الكرة الأرضية وهى تمد يد المساعدة إلى كل شعوب العالم التي كانت تعانى من ويلات الرأسمالية ومظالمها ، عاملة على نشر الإلحاد بكل الطرق والإمكانيات المتاحة لديها.

وهكذا لم تعد الماركسية مجرد تيار من التيارات المادية كالوضعية والوجودية وغيرهما من التيارات ، يقتصر ضررها على الدين في مجال العلم والثقافة والفكر فقط وإنما أصبح لها دول كبيرة في مساحتها عظيمة فى إمكانياتها المادية والثقافية .

ولم يقتصر دور الدولتين في التأثير على دول الشرق وشبابه فحسب ، وإنما تأثر بهما ملايين الشباب والشيوخ فى داخل الكتلة الغربية من أوروبا وأمريكا ، حتى أسست أحزاب شيوعية ماركسية فى الغرب تدعمها الدولتان بإمكانياتهما الهائلة ، واستطاعت بعض تلك الأحزاب أن تصل إلى سدة الحكم فى بلادها لكى تغير بدورها من وجه الحياة وتقضى على البقية الباقية من الدين فيها .

ولم تعد الماركسية واعتناقها قاصرة على الشباب المتحمسين ، وإنما تجاوز ذلك إلي علماء ومفكرين وفلاسفة في الغرب الذين آمنوا بها عن اقتناع ودعوا إليها بقوة وكتبوا داعين إليها الناس ، وقد كان من

هؤلاء العالم والفيلسوف الفرنسى الشهيرروجيه جارودى قبل أن يهديه الله تعالى إلى الإسلام فقد كرس سنين طويلة من حياته لخدمة الماركسية حتى كتب فيها مؤلفات عديدة [1]، كانت موضع إعجاب الكثيرين في الأوساط الثقافية .

وقد نقد جارودى بعد ذلك ماركسية ماركس وانجلز في كتابه الشهير ماركسية القرن العشرين داعيا إلى التعديل في الماركسية قبل أن ينقدها تماما ويعتنق الإسلام .

ومن الذين أعجبوا بالماركسية من الكتاب والمفكرين الغربيين أشد الإعجاب هم : أندريه جيد ، ورتشارد رايت ، وآرثر كستلر ، واكنارسيلونى ، وستيفن سبندر، ولويس فيشر.

ثم رجعوا عنها تائبين عندما عرفوا حقيقتها معلنين إفلاس الشيوعية .

وهناك من جمع آراء هؤلاء موضحا رحلتهم من الليبرالية إلى الشيوعية ، ومنها إلى الليبرالية مرة أخرى وهو الفيلسوف الاشتراكى البريطانى ريتشارد كروسمان فى كتابه الشهير " الصنم الذي هوى الذى يقول فيه[2] :« إن الصلة الوحيدة الجامعة بين هؤلاء الستة الذين

---

(١) ومن هذه المؤلفات : النظرية المادية فى المعرفة وهو في حوالى خمسمائة صفحة دافع فيه عن الماركسية دفاعا فكريا وفلسفيا ، وقد ترجمته دار دمشق .

(٢) انظر : ريتشارد كروسمان : الصنم الذى هوي : ترجمة فؤاد حمودة ص ٧/ ٢ ، الدار السعودية للنشر .

اختلفت شخصياتهم وتباعدت ، هى أنهم جميعا قد اختاروا الشيوعية بعد نضال نفسى مضن ، لأنهم فقدوا ثقتهم فى الديمقراطية .. على هذا فمنشأ تحولهم هذا هو اليأس من القيم الغربية وجدواها ، إنه لمن السهل أن يدرك المرء الآن أن هذا اليأس كان يأسا هستيريا عصبيا ".

ويقول الكاتب والصحفى الشهير " اندرية جيد " عن تحوله إلى الشيوعية واعتناقه لها قبل أن يتوب عنها (١)" إن تحولى يشبه الإيمان بدين ، إن كيانى كله يتجه الآن إلى هدف واحد لا ثانى له ، كل أفكاري ترتد إلى ذلك الهدف وحده ، وفى حالة الضيق المؤسف الذى يعيش فيه العالم اليوم ، يبدو لى أن منهاج الاتحاد السوفيتى يشير إلى طريق الخلاص ، وكل شئ حولى يزيدنى بهذا اقتناعا ، بل إن مجادلات المعارضين التعيسة ، بدلا من أن تقنعنى ، تستثير سخطى وغضبى ، ولو شعرت أن حياتى ضرورية لضمان نجاح التجربة السوفيتية لقدمتها في الحال بضمير مطمئن ونفس راضية . إننى أقول هذا بكل صدق وإخلاص ، وأنا بكامل عقلى ، وبنفس هادئه ، لأننى أحس بحاجة شديدة إلى تقديم هذه الشهادة مخافة أن يتدخل الموت قبل أن أتمكن من التعبير عن نفسى " .

---

(١)انظر : ريتشارد كروسمان : الصنم الذى هوي : ترجمة فؤاد حمودة ص ٧/ ٢ ، الدار السعودية للنشر . ص ٢١٤.

ويقول [1]:

لقد تحدثت من سنوات عن حبى وإعجابى بالاتحاد السوفيتى حيث كانت تتم تجربة لم يسبق لها مثيل ، تجربة ملأت قلبى بالآمال العظام فى تقدم رائع يشمل البشرية كلها ويدفع بها إلى الأمام . لقد كان ما أسعدنى أنى عشت فى ذلك الوقت كى أتمكن من مشاهدة هذا البعث الجديد ومن تقديم حياتى رخيصة فى سبيله ، لقد صممت فى داخليتى على أن أربط نفسى بمصير الاتحاد السوفيتى باسم ثقافة المستقبل ، ويقول أحد هؤلاء[2] وهو يفسر سبب اعتناقه للماركسية :

" ومما زاد فى سخطى ما علمت من أن الغلال كانت تحرق والثمر يتلف والخنازير تغرق فى سنوات الكساد الاقتصادى ، لكى تبقى الأسعار عالية ويتمكن الرأسماليون المترفون من التمتع بلذائذهم ومسراتهم ، بينما كانت أوربا تموج بالعمال المتعطلين ، وبينما كان والدى يخفى أطراف أكمامه تحت حافة الطاولة حتى لا نرى ما فيها من تمزق وبلى ، لقد اختلطت الصورتان ، صورة الخنازير المغرقة ، وصورة الأكمام الممزقة فى إطار عاطفي واحدا اشتعل عندما اتصل به فتيل المثل الأعلى الجديد ، كنا نتغنى بالمثل الأعلى الجديد وننشد " الانترناسيونال" .

---

(١)انظر : ريتشارد كروسمان : الصنم الذى هوي : ترجمة فؤاد حمودة ص ٧/ ٢ ، الدار السعودية للنشر . ص٢١٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣.

ولم يكن انتشار الشيوعية محصورا آنذاك بين عدد محدود من الكتاب والمثقفين " بل إن الذى حدث هو أن عددا لا يحصى من رجال الفكر والأدب فى أوربا وأمريكا آمنوا بالشيوعية واعتنقوها فى السنوات التي وقعت بين ثورة أكتوبر وبين ميثاق ستالين - هتلر "[1].

تطور الإنسان إلى الإنسان الأعلى:

وإذا كان داروين قد انتهى إلى القول بأن الخلية الواحدة مرت بتطور مراحل عديدة حتى صارت إنسانا . والإنسان في رأيه من سلالة القرد كما رأينا فقد جاء هناك من يكمل طريقه حتي النهاية ، حيث ذهب الأديب الألمانى الشهير نيتشه (١٨٤٤- ١٩٠٠) إلى أن الإنسان نفسه يمكن أن يتطور إلى مرحلة أعلى سماها سوبرمان، أو الإنسان الأعلى ، يكون الفرق بينه وبين الإنسان الحالى فى الخصائص والمشخصات كالفرق بين الإنسان الحالى والقرد.

وقد ذهب ، بناء على ذلك ، إلى أن الإمكانيات المادية جميعا ، لا ينبغى أن تبعثر بين البشر العاديين ، بل يجب أن تسخر لخدمة فئة ممتازة من البشر تملك المؤهلات الكافية للتطور إلى الإنسان الأعلي المنشودة في المستقبل ويجب أن نضرب بكل معانى الخير والرحمة والشفقة والمساواة والإخاء عرض الحائط ، طالما تحول تلك المعاني دون تسخير

(١)انظر : ريتشارد كروسمان : الصنم الذى هوي : ترجمة فؤاد حمودة ص ٧/ ٢ ، الدار السعودية للنشر . ص ٥.

الإمكانيات جميعا لخدمة هذه الفئة [١].

وقد تمخضت تلك الآراء الموغلة فى التطرف وجعل الإنسان مساويا لأى حيوان من الحيوانات ، بل أية حشرة من الحشرات التي تتطور إلى كائنات أعلى منها ، عن قادة عسكريين من النازيين والفاشيين يحملون هذا الفكر فيعتقدون أنهم يمهدون للإنسان الأعلى أو أنهم فعلا " الإنسان الأعلى ؛ ويجب أن يسودوا العالم كله كما يجب على البشر جميعا أن يطيعوهم ويتبعوهم كقطيع من الغنم.

لا وجود لقيم مشتركة بين البشر:

وجاءت الوجودية بعد ذلك لكى تقضى على كل القيم الخلقية والمبادئ الإنسانية بين البشر فقد قال سارتر[٢] الوجوديون عموما سواء المسيحيين أو الملحدين ، يؤمنون جميعا بأن الوجود سابق على الماهية ، وأن الإنسان يوجد أولا ثم تتحدد ماهيته فيما بعد .

فقد كانت الفلسفة تعتقد فى أن أفراد البشر جميعا يشتركون فى ماهية واحدة وحقيقة مشتركة ، وهذه الماهية أو الحقيقة سابقة على وجود الأفراد الذين صنعوا أو خلقوا حسب تلك الماهية أو الصورة ، فجاءت الوجودية لتعكس هذا الرأى رأسا على عقب،ويترتب على

---

(١) انظر د. زكى نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة ، ص ٣٥١ وما بعدها .

(٢) انظر : جان بول سارتر : الوجودية مذهب إنسانى ص ٧ ، ترجمة . عبد المنعم الحفنى ط٢، مكتبة راديو - القاهرة ١٩٦٦.

اشتراك أفراد البشر جميعا فى ماهية أو حقيقة واحدة وجود خصائص وصفات مشتركة بينهم جميعا مما يفتح المجال لوجود منهج مشترك وقيم ومبادئ خلقية مشتركة ، ويؤمنون بها ويسعون إلى تحقيقها.وغالبا ما يأتى الوجود أقل كمالا من الصورة أو الماهية التى تفقد بعض بهائها عند تحويلها إلى الواقع العملى المحسوس ، ولذلك ذهب كثير من المفكرين إلى أن جهاد الإنسان وسعيه يدوران حول تكميل نفسه حتى يصبح مطابقا للصورة الإنسانية المثالية التي خلق عليها الله الإنسان الكامل .

أما الفلسفة الوجودية فقد عكست الوضع تماما بقولها إن الوجود هو الذى يسبق الماهية مما ترتب عليه القول بعدم وجود قيم أو مبادئ مشتركة بين جميع البشر وأن على كل إنسان أن يصنع مبادئه بنفسه بمعزل عن البشر الآخرين ودون التقيد بقيم المجتمع وأخلاقياته.

وقد مهدت الوجودية بذلك لتمرد الشباب على الأسرة والوالدين والدين والقيم الخلقية ، حتي أصبح كل إنسان يلبس ما يشاء من ملابس النساء أوالرجال أو يمشى عاريا ، ويسير فى الطرقات نظيفا أو قذرا متسخا ، ينام فى بيته أو فى الشارع على الرصيف .. لأنه فى كل ذلك - حسب المذهب الذى يعتنقه - يحقق ذاته ويفعل ما يريده بل هناك من يتقدم من الرجال لكى يحول جنسه إلى امرأة والعكس .

وهناك محلات تفعل ذلك لهم بصفة مؤقتة وعيادات أطباء تقوم بهذا التحول .

هكذا ابتعد المجتمع الغربى عن الدين بالتدريج، وواكب ذلك أن يقترب- بالقدر نفسه- إلي الطرف الآخر من الصراع، وهو العلم الذى ازدهر ونمى وترعرع، وكثرت الاختراعات وزادت الإبداعات العلمية.

وقد كان للازدهار العلمى الذى عاش ولايزال يعيشه الإنسان بفضل الأخذ بالعقل والعلم جانب مشرق يتمثل في المنجزات العلمية التى يسرت على الإنسان سبل العيش وتطوير وسائل الاتصال والمواصفات التى جعلت العالم كله قرية صغيرة، حتى أن همسة تقع فى أقصاها، تسمع في أدناها، وازداد دخل العالم عشرات المرات بالمقارنة بما سبق واجتاز الإنسان الثورة الصناعية ثم الثورة التكنولوجية.

فمن الإنصاف أن يقول المرء إن ماتوصل إليه الغرب وحضارته فى هذا الجانب وهو جانب التقدم المادى لم يتوصل إليه الإنسان عبر تاريخه الطويل فى كل الحضارات السابقة، وأن البشرية كلها، شرقها وغربها، استفادت من إنجازات هذه الحضارة بدرجات متفاوتة وإن خلا ذلك من العدل كما سيأتي، وأنها أى تلك الحضارة، قد غيرت من وجه العالم، ووجه الكوكب الأرضى بشكل لامثيل له، فعالم اليوم غير عالم الأمس تماما، وإن ماتيسر للإنسان اليوم من الوسائل وتطوير الحياة وطرائق العيش والرخاء والرفاهية لم يكن يحلم به الإنسان من قبل فى

خياله، وإن الإنسان قد حقق من السيطرة على الطبيعة وإخضاع ظواهرها لنفسه وأهدافه وخدمة بنى جنسه مالم يحدث قبل ذلك أبدا. ونذكر فى هذا المجال بحثاً أعده الدكتور على حبيش رئيس أكاديمية البحث العلمى السابق، نشره مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام فى كتاب بعنوان : مبادرة للتقدم (١) ومما ورد فيه :

" إن الاحصائيات تقول تحفظاً إن عدد العلماء الذين يعيشون بيننا الآن يساوى ثلاثة أرباع مجموع العلماء الذين عاشوا على هذه الأرض منذ بدأ التاريخ البشرى.

"وإن ٢٪ من مصادر العالم تخصص للبحث والتطوير، وقد أدى ذلك إلى تسارع معدلات النمو العلمى بحيث أصبحت المعلومات فى أغلب ميادين البحث العلمى تتضاعف كل عشر سنوات وربما أقل، بمعنى أن ماتحصله البشرية فى أى عشر سنوات الآن يساوى ما حصلت عليه فى كل ماسبق من تاريخها. من جراء ذلك، أصبح العالم يواجه اختراعا جديدا كل دقيقتين، وهناك الآن مايزيد على ثلاثين مليون براءة اختراع مسجلة تزيد سنويا بمقدار مليون براءة وخلال جيل واحد بعد عام ١٩٥٠ زاد دخل الفرد فى معظم أوروبا بقدر زيادته خلال فترة قرن ونصف القرن السابقة كلها، وزاد الناتج الفعلى بمقدار خمسة

---

(١) انظر في ذلك مقال : فهمى هويدى فى جريدة الوطن الكويتية: الثلاثاء ٤ أغسطس ١٩٩٨.

أمثال[1] إلا أن استخدام العقل فى غياب الالتزام بالتعاليم الدينية قد أدى أيضا إلي ممارسات خاطئة قد تقود البشرية إلى هاوية الهلاك إن لم تكن قادتها فعلا.

ويتمثل ذلك فى ممارسات عدة أهمها:

١-الاستعمار: فقد انطلق الغرب يستخدم قوته المادية لاستعمار البلاد الأخرى أقل تقدماً منها، حتى أصبحت بريطانيا القوة العظمى الكبرى في ذلك الوقت، الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس، فقد استعمرت معظم البلاد الشرقية التى عاثت فيها فساداً، فقيم العدالة والمساواة والحرية وكرامة الإنسان وحقوق البشر.. الخ كانت تعنى الكثير فى داخل البلاد الأوروبية، ولكنها لم تكن تعنى شيئاً إذا كانت القضية ترتبط بالعلاقة بين المستعمرين ورعاياها في البلاد المستعمرة، يقول أحد أشهر ساسة الشرق الذى عاش فترة استعمار بريطانيا لبلاده. هو جواهر لال نهرو[2] (نرى البريطانيين- وهم آنذاك أكثر البلاد الأوروبية تقدماً- يصبحون في الهند أكثر الطبقات رجعية وتأخراً، ويحاولون انعاش الطبقة الاقطاعية المشرفة على الهلاك، فيخلقون أصحاب الأملاك وينا صرون مئات الحكام المستقلين فى نظامهم الاقطاعى، ويؤازرون الاقطاعية فى الهند. جرى كل هذا بالرغم من

---

(١) انظر : لجنة شئون المجتمع العالمى - جيران فى عالم واحد ص٣٩ عالم المعرفة عدد ٢٠١.

(٢) انظر: نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ترجمة مجموعة ص ١١٨.

كون الانجليز فى طليعة شعوب أوروبا التى ثارت فيها الطبقة الوسطى البرجوازية وسلمت السلطة للبرلمان).

ويضيف:[1] (وهكذا تحالف البريطانيون مع جميع العناصر الرجعية والمحافظة فى الهند، وحاولوا جعل الهند مجرد بلد زراعى منتج للمواد الخام اللازمة لصناعاتهم. وحاولوا منع دخول الآلات للهند ففرضوا الرسوم الباهظة عليها. أما البلدان الأخرى، فانها شجعت الصناعة، وسنرى بعد قليل وثبة اليابان الرائعة فى مضمار الصناعة.

أما فى الهند فقد درست بريطانيا الصناعة، وأصبح بناء المصنع فى الهند- بسبب الرسوم المفروضة على استيراد الآلات - يكلف أربعة أضعاف مثيله فى بريطانيا، بالرغم من رخص الأيدى العاملة فى الهند. وهذا الإجراء يؤخر التطور والنمو، وإن لم يستطع أن يوقف التيار كلياً إلى الأبد.

ويتحدث عن العمال الهنود (أن الأمهات الحاملات أطفالهن على أيديهن يخدرنهم بمخدرات منومة حتى لايعيقوهن عن العمل. أثناء فترة الاستعمار البريطانى للهند.[2])

أما فى الصين جارة الهند الكبرى فقد أدخل الأوربيون الأفيون،

---

(١) انظر: نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ترجمة مجموعة ص١٢٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٢.

وكانت شركة الهند الشرقية التى أسست من قبل بريطانيا تحتكر التجارة آنذاك، ثم فتحوا المجال لجميع الأوروبيين الذين أدخلوا مئات الأطنان من الأفيون إلى الصين، ولما أرادت الأخيرة منع ذلك وجمع عشرين ألف صندوق من الأفيون من التجار الأجانب والمحليين وأحرقتها كلها محذرة من مصادرة حمولة أية سفينة تحمل هذا الوباء إلي أبناء الصين، أعلنت بريطانيا عام ١٨٤٠ الحرب على الصين انتهت عام ١٨٤٢ بهزيمة الصين وتوقيع معاهدة مشينة وإطلاق حرية الاتجار بالأفيون، وعرفت هذه الحرب بحرب الأفيون التى أرغمت الصين على فتح خمس موانئ فى وجه تجارة الأفيون وعرفت هذه الموانئ ، بموانئ المعاهدة.

واقتطعت بريطانيا أيضاً جزيرة هونج كونج وابتزت قسماً كبيراً من المال كتعويض عن كمية الأفيون التى أحرقت وعن تكاليف الحرب التى فرضتها على الصين.(١)

وبعد ذلك بحوالى قرن من الزمان ألقت الولايات المتحدة الأمريكية بقنبلة هيدروجينية على هيروشيما وأخرى على نيجازاكى المدينتين اليابانيتين، وقتلت فى كل منهما أكثر من مائة ألف إنسان بالإضافة إلي تدميرهما وترك العدد المماثل من الجرحى والمعوقين...

وعلى كل حال فإن أبواب الصين بعد تلك المعاهدة أصبحت

---

(١) انظر: نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ترجمة مجموعة ص ١٢٦ ومابعدها باختصار.

مفتوحة أمام المبشرين من النصارى، وقد نجم عن محاولات التبشير هذه، ثورة من أخطر الثورات الصينيةعرفت بثورة تاينيتج عام ١٨٥٠، وفيها قتل حوالى عشرين مليون شخص)[١].

وفى عهد الاستعمار لقيت الشعوب الأفريقية ألواناً من الظلم والقهر والاضطهاد، فكان الرجل الأبيض يسخر الأفريقى الأسود في كل مصالحه وحاجاته، وكانت الشركات الأوروبية تستغل الأفريقيين استغلالاً جماعياً وتلزمهم بالعمل الإجبارى في المناجم والمزارع والغابات بأجور زهيدة، لاتسد رمقاً ولا تشفى غليلاً. وقد فنى كثير من الأفريقيين الذين أخرجوا من ديارهم وهاموا على وجوههم فى الفيافى والقفار، فأماتهم الجوع والمرض.

واتبع المستعمرون في إبادة الشعوب الأفريقية سياسة التجويع، وكان من مظاهره أن حرموا عليهم صيد البحر والبر، فصيد البحر كان وقفاً على شركات أجنبية تحتكر صيده، وصيد البر، كان ممنوعاً على الأفريقيين، فقد كانت الطيور فى الغابات فى متناول يد الأفريقى، ولكن الأوربى وحده هو صاحب الحق فى صيدها، وقد عبرّ الزنوج عن هذا الحرمان بأغان حزينة، وإليك نموذجاً منها:

فوق الجميزة سنجـــــاب والأرنب يمرح فى الحقـــل

وأنا صيـــاد وثـــــاب لكن الصيد على مثلـــى

(١) انظر: نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ترجمة مجموعة ص ١٢٨-١٢٩ بتصرف واختصار.

محظـــر إذ أنى عبـــد

والديك الأبيض في القنّ يختال كيوسف في الحســن

وأنا أتمنىً لو أنـــــــى أصطاد الديـــك ولكـــنى

لا أقدر إذ أنى عبـــد

وكانت سياسة التجويع إحدى وسائل الدول الاستعمارية، لإكراه الأفريقيين على العمل بأجر زهيد، ولم تكتف بذلك بل كانت تفرض على هذا الأفريقى الجائع ضرائب فادحة، تجبيها بوسائل وحشية، ففى الكونغو كانت الضريبة المفروضة على القرى تقديم قدر معين من المطاط المستخرج من الغابات، فإذا عجزت عن تقديمه شنّت عليها حملة عقاب، فيقتل الرجال والنساء ثم تقطع أيديهم وترسل إلي المعتمد البلجيكى ليتأكد من نفاذ العقوبة.

وقد كتب الكاتب الأمريكى(مارك توين Mark Twain) كتاباً عن حكم الملك ليوبولد ووحشيته فى الكونغو، جاء فيه: إن دم الضحايا الأبرياء الذى أراقه هذا الملك لو صبَّ في دلاء، ثم صفَت الدلاء، لامتد الصف ألف ميل. ولو قدر للهياكل العظيمة للملايين العشرة الذين قتلوا أو ماتوا جوعاً أن تنهض وتمشى فى خط واحد، لاستغرق مرورها من نقطة واحدة سبعة أشهر وأربعة أيام (١).

(١) انظر : د. عبد السلام الزمانينى : الرق ماضيه وحاضره ص ١٥٠-١٥١ ط٢. المجلس الوطنى للثقافة- الكويت عدد ٢٣.

وكل هذه مجرد أمثلة على ممارسات استعمار الغرب للشعوب والأمم الأخرى وإلا فقد حدث شبيه بما ذكرنا فى سائر أنحاء الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس، مثل مصر وسوريا وفلسطين والجزائر وأفغانستان... الخ فقد كان المستعمر البريطانى عندما ينطلق من بلاده قاصداً البلاد المستعمرة يترك كل ما قرأه ويمارسه عن القيم الديموقراطية فى بلاده.

ولم تترك بريطانيا مستعمرة من مستعمراتها إلا بعد أن تركت فيها مشاكل وأشعلت فيها نيراناً لاتزال تلك المناطق تحترق فيها، وأوضح مثال هو فلسطين العربية التى منحتها لليهود لكى تدور رحى الحرب بعد ذلك منذ أكثر من نصف قرن من الزمان بين العرب وإسرائيل دون أن تخمد نيرانها حتى يومنا هذا وربما لعشرات سنين قادمة أيضاً.

٢- التنمية لأجل الربح فقط لا لأجل الإنسان:

ولم يكن الاستعمار وحده، بالصورة التى ذكرناها، هو ما نشأ عن ابتعاد الغرب عن الدين، وإنما نشأ عن ذلك ماقد يكون أفظع وأشد خطراً ليس على الغرب فقط وإنما على البشرية كلها وهو طغيان الاعتبارات المادية على جميع الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية.

فالانتاج مثلاً فى الغرب لا يتم ربطه بما ينفع الإنسان ويفيده، بل بما يحقق أعلى معدلات الربح بغض النظر عن حاجة البشر إليه، وقد

يكون ذلك ضاراً بالإنسان والمجتمع البشرى.

والدليل على ذلك ...

إلقاء كميات هائلة من المواد الغذائية يصل مقدارها أحياناً إلي آلاف الأطنان في البحر، وذلك حفاظاً على سعرها، فى وقت يعانى فيه الإنسان ربما فى البلاد نفسها من الجوع، ففي عام ١٩٨٢ حسب التعداد الذى قدمته هيئة الأمم المتحدة هناك خمسون مليون نسمة فى العالم ماتوا جوعاً أو بسبب سوء التغذية [١] . فانظر كيف يفضل الغرب مزيداً من الإنتاج والربح المادي العائد منه ليس على مصلحة الإنسان فحسب بل على حساب حياته وبقائه أيضاً.

كما يدل على طغيان المادة عند الغرب على جميع الاعتبارات الإنسانية، إنتاج الأسلحة مما أدى إلى كثرة الحروب وشدتها بطريقة الأسلحة وبفضل تلك الأسلحة المدمرة أصبحت الخسائر البشرية فى كل حرب بالملايين كما رأينا بعد أن كانت في السابق بالمئات أو الألوف، (فقد بلغ عدد خسائر الحرب العالمية الأولى مابين قتيل وجريح ومفقود ٣٧ مليوناً، وباستطاعتنا أن نتصور مايعنيه هذا الرقم إذا أدركنا أن جميع قتلي الحروب التى عرفتها الإنسانية منذ بدء التاريخ الإنسانى- أى خلال ستة آلاف سنة بما فيها حروب نابليون- لاتصل

(١) هذا ماذكره الأستاذ روجيه جارودى ، انظر أمينة الصاوى : الجارودى والحضارة الإسلامية ص ١٥٩-١٦٠.

إلى هذا الرقم الذى مات فى حرب واحدة خلال أربع سنوات. ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى عمت الفوضى شرق أوروبا ووسطها لتنتشر الأوبئة بحيث يهلك بالتيفوس وحده عدة ملايين لايعرف عددها من البشر...) (١).

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية (لكى تطحن عشرات الملايين طحناً تحت عجلات آلة الحرب الجهنمية بالقتل والتغريق والتحريق والنسف والتدمير(ولم يعد فيها للقتال ميدان أو خط أو منطقة محدودة وإنما العالم كله ميدانه والشعوب البائسة ضحاياه.

(وكان أغلب ضحاياها من المدنيين وحسبنا أن نشير على سبيل المثال أن عدد قتلي المدنيين من البولنديين يربو على ستة ملايين ومن مدنيين الروس عشرون مليونا من البشر) (٢).

هذا مافعلته فلسفة الإنتاج لأجل الربح المادى فى الغرب بالعالم ولم يعد الأمر مقصوراً على هذا الحد وإنما تجاوزه إلى أسلحة الدمار الشامل والأسلحة البيولوجية والكيماوية ثم الأسلحة الذرية التى قد تنهى الحياة على ظهر الكوكب لأول مرة في تاريخ البشرية والتى استخدمت فعلاً فى اليابان فى الحرب العالمية الثانية.

يقول الجارودى وقد كان من رواد الفكر الغربى وأحد فلاسفته

---

(١) انظر : أحمد حسين : تاريخ الإنسانية ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) المصدر اسابق ٢٤٣-٢٤٤ بتصرف.

العظام قبل أن يهديه الله تعالى للإسلام [1]:

(منذ قرون خمسة يسيطر الغرب ... أى يسيطر على العالم بدون أى شريك وقد فرض الغرب نموذجه للتنمية ومنهجه الثقافى أيضاً ويتطلب نموذجه للتنمية أن تنهب كل الثروات المادية والإنسانية التى تمتلكها كل الشعوب لفائدة الغرب وحده أى ما يعادل خمس سكان الكرة الأرضية فقط، ولذلك فالغرب ينتج أى شئ وبكميات كبيرة وفى وقت سريع سواء أكانت حاجة مفيدة أم مؤذية أو حتى سيئة كالأسلحة المدمرة التى تعد بحق سوقاً لاينضب معينه أبداً، ويمثل ذلك فى أجلى صورة هذا النموذج المخيف في التنمية وصفته الانتحارية، إذ أنه لكل فرد فى هذه المعمورة مايوازى أربعة أطنان من المتفجرات التقليدية، وهكذا أصبح من الممكن فنياً ولأول مرة فى تاريخ الإنسانية منذ ثلاثة ملايين من السنوات، هدم كل أثر للحياة فى هذه الأرض.

وفى نفس العام سنة ١٩٨٢ حسب التعداد الذى قدمته هيئة الأمم المتحدة هناك خمسون مليون نسمة فى العالم ماتوا جوعاً أو بسبب سوء التغذية. ولا يمكننا أن نتخيل صورة أبشع من هذه الصورة التى وصلت إليها الكرة الأرضية بعد خمسة قرون من (التقدم) كما يجرؤون على تسمية هذه الفترة في الغرب).

---

(١) انظر :الجارودى والحضارة الإسلامية ص ١٥٩-١٦٠.

ويقول فى موضع آخر [1]:

(وهكذا فإن حضارتنا الغربية حالياً فى سبيل الموت لا لأنها تفتقد الأساليب ولكنها لأنها تفتقر إلى الغايات).

هذا هو الوجه الخطير لأزمة الحضارة الغربية، أزمة المعنى، أن علماءنا الوضعيين وفنانينا الذين فقدوا الوجهة الصحيحة وكتابنا المتشائمين يجسدون هذه الأزمة بدلا من أن يساعدونا فى التغلب عليها وكأن الحضارة ليست تفكيراً في الأغراض وفي معنى الحياة والموت. وهكذا ترى وحتى وسط الكبار منهم من يدفن الأمل ويحاول أن يقنع الشباب بأنه ليس لحياتهم أو لموتهم أى معنى إطلاقاً.

٣- فقدان العدالة وانتشار تجارة الرقيق:

وهكذا نرى أن التقدم الغربى فى غياب الدين قد أدى إلى أن يفتقد الإنسان- شعوباً وأفراداً- الشعور بالأمن، إذ أصبح مصير البشرية على شفا جرف هار، ومع فقدان الأمن يشعر الإنسان اليوم بفقدان العدالة أيضاً، فقد (تناول البنك الدولى [2] فى ربيع عام٩٧ قضية الفقر والثراء فى العالم من خلال أغنى خمس دول وأفقر خمسة بلاد طبقاً لمؤشر متوسط دخل الفرد، واتضح من التقرير أن الأكثر ثراء ينتمون جميعاً إلي أوروبا [3] عدا اليابان، والأشد فقراً ينتمون جميعاً

---

(١) انظر :الجارودى والحضارة الإسلامية ص ١٥٩-١٦٠. ص ١٧٣.

(٢) انظر: محمود المراغى : أرقام تفضح العالم ص ٩٦-٩٧.

(٣) هى بالترتيب لكسمبورج وسويسرا واليابان والنرويج والدانمارك.

لأفريقيا جنوب الصحراء [1] .

وقد وصل متوسط نصيب الفرد من الناتج القومى في عام ٩٥ فى لوكسمبورج إلى (٢ , ٤١) ألف دولار وذلك مقابل الحد الأدنى وهو موزمبيق الذى بلغ متوسط دخل الفرد السنوى فيه ثمانين دولاراً فقط، وبالنظر في هذه الاحصائية نجد أن الفارق بين الإنسان فى البلدين يزيد على الخمسمائة ضعف..) [2] .

أما التقرير الصادر عن البنك [3] عام ١٩٨٤ فيوضح "أن نسبة الفقراء فى تزايد مستمر فى العالم وتل هذه النسبة بالقياس بالأغنياء إلي ثلاثة أرباع العالم عام ١٩٨٠، وهؤلاء نصيبهم من الثروة ٢١٪ فقط).

" وقد قدر البنك الدولي عدد من يعانون من الفقر المطلق- وهم المعدومون فعلاً بـ٣ر١مليار نسمة فى عام ١٩٩٣، ويفتقر ٥ر١ مليار نسمة لفرص الحصول على المياه المأمونة ومليارآخر إلي الصرف الصحى، ويعانى من الأمية مايزيد على مليار نسمة [4] .

وأما استخدام الطاقة، وهى مؤشر رئيسى لمستوى المعيشة، فإن

---

(١) هى بالترتيب أيضا: موزمبيق وأثيوبيا وتانزانيا وبوروندى.

(٢) وتأتى الدول العربية ولاسيما الخليج وفي مقدمتها الإمارات والخليج بين الأغنى والأفقر. فليست هى أكثر ثراء كما تشيع الصحافة الغربية انظر المصدر السابق ص٩٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣٦ بتصرف.

(٤) انظر: لجنة شئون المجتمع العالمى: جيران فى عالم واحد ص ١٥٩ باختصار.

مايستهلكه الفرد فى أثيوبيا يهبط إلي مايعادل (٢٣) كيلوجراماً من الطاقة فى مقابل (٥٠٩٦) كيلو جراماً في الدانمارك و٣٦٤٢ في اليابان و٣٤٩١ في سويسرا.

وفى تقرير نشرته الأمم المتحدة[١] تحت عنوان : التنمية البشرية لعام ١٩٩٦ ورد أن هناك ٣٥٨ مليارديراً فى العالم، وأن أصل هؤلاء المالية تعادل مجموع الدخول السنوية لبلدان تمثل نصف سكان العالم أو بالتحديد ٤٥٪ من هؤلاء السكان، أى دخول مايزيد عن ٥ر٢ مليار نسمة من سكان الكرة الأرضية، فالفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد اتساعاً بين الأمم أو داخل البلد الواحد وبما يجعل العالم طبياً لكلمات التقرير ينتقل من حالة اللامساواة إلي حالة اللاإنسانية.

والدول الأكثر غنى متوسط عمر الإنسان فيها يتراوح بين ٧٦و٨٥ عاماً بينما هذه النسبة في الدول الأكثر فقراً بين ٤٦-٥٢عاماً[٢].

وقد حاولت منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) أن ترصد قضية الأطفال فى سوق العمل استناداً لمسح حديث لمنظمة العمل الدولية فذكرت أن الرقم يمكن أن يصل بين ٢٥٠و٤٠٠مليون طفل.[٣]

---

(١) انظر: لجنة شئون المجتمع العالمى: جيران فى عالم واحد ص ١٥٩ باختصار.
(٢) انظر : محمود المراغى : أرقام تصنع العالم ص ٩٩.
(٣) المصدر السابق ص ٥٧.

(فمن زاوية العدل ، نحن أمام وضع أشد إجحافاً وظلماً من ذى قبل فالأكثر فقراً أقل عمراً وصحة وتعليماً وفرصاً فى الحياة من زاوية التنمية والعكس صحيح أيضاً)[١]

ووسط كل ذلك تنتشر تجارة الرقيق فى العالم بشكل مخيف إذ كثيراً مايتخذ التبنى وسيلة للإسترقاق ويتتبعون الفقراء الذين لايجدون مايطعمون أولادهم، فيتنازلون لهم عنهم مجاناً أو لقاء ثمن بخس، ويقول الكولونيل(باتريك مونتغمرى Patrick Nantogomery) أمين سر جمعية إلغاء الرق، في مقال نشره عام ١٩٦٦ :(أن التبنى الصورى وبيع البنات منتشر في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية وفى أكثر مناطق آسيا وفى بلاد كثيرة فى أفريقيا، وغالباً مايتم فى أعقاب ولادة البنت، فيتبناها أو يشتريها تاجر رقيق ويقوم على تربيتها، حتى إذا بلغت مابين التاسعة والحادية عشرة من عمرها، باعها لتكون خادمة أو خليلة لمشتريها، وقد علمنا أن أطفالاً بيعوا فى بلاد متباعدة كالمكسيك ولبنان وتركيا، وأن بعضهم قد شوهت أجسامهم بقطع أيديهم أو أرجلهم أو بسمل عيونهم، وبيعوا لمن اتخذ الاستعطاء وسيلة للعيش)[٢] . ومثل ذلك مانشرته جريدة لوموند الفرنسية فى عددها الصادر بتاريخ ٣١ أغسطس(آب) سنة ١٩٧٨ نقلا عن مجلة The Herald . التى تصدر فى (كراتشى) (عدد مايو سنة ١٩٧٨) من أن

---

(١)انظر : محمود المراغى : أرقام تصنع العالم ص ١٤٥ .

(٢) انظر : د. عبد السلام الترماتينى: الرق ماضيه وحاضره ص ٢٩٥-٢٩٧.

تجار الرقيق يشترون الطفل فى الهند بـ (١٦٠٠) روبية، فمن كان قوياً باعوه إلي المقاولين، ومن كان هزيلاً سملوا عينيه بحديد محمى وباعوه لمن يعيشون على التسكع واستعطاء الناس، ليتخذوه وسيلة لاستثارة الشفقة واستدرار المال. وجاء في كتاب (الاسترقاق الجنسى) للباحث (ستيفان بارلى) أن تجارة الرقيق في الهند منتشرة علي نطاق واسع، ومصدره تلك الطبقات الفقيرة التى تعانى الجوع وتضطر الآباء إلي بيع بناتهم لتجار الرقيق بأسعار بخسة، ففى الهند عائلات تجد فى الخمسين روبية ثمنا لفتاة، ثروة ضخمة وتخلصا من فم جائع وفى عام ١٩٦٦ قامت فى البرلمان الهندى ضجة أثارها نائب من نوابه وقال : إن المجاعة في ولاية (أوريسا Orissa) دفعت كثيراً من الأسر إلى بيع أولادهم، وصرح نائب آخر بأنه رأى صوراً لبنات بيعت الواحدة منهم بروبية واحدة.

وفى تحقيق أجراه الصحفى الفرنسى Jear Claude Guillebraud خلال جولة قام بها في شرق آسيا سنة ١٩٧٩ ونشرته جريدة لوموند فى أعداد متتابعة، بيان عن استرقاق الأحداث بشرائهم من ذويهم الفقراء، ويذكر الصحفى أن القوادين الصينيين فى مدينة (باتوك)- عاصمة تايلاند- يجوبون الأرياف ويشترون الفتيات الصغيرات من أبنائهن الفقراء، لقاء مبلغ لايتجاوز (٢٠٠٠) باتBath للفتاة الواحدة ، ويسخرون أولئك الفتيات فى تعاطي

البغاء ويجنون من ذلك أرباحاً طائلة، ويتحدث ذلك الصحفى عن تجار الرقيق الذين يجوبون المناطق الشمالية في تايلاند، وهى أشد المناطق فقراً، وفيها لايتجاوز دخل الفرد ١٥٠ باث فى السنة - أى مايعادل ٣٥ فرنكا فرنسيا- ويشترون الأحداث الذين لايتجاوز عمرهم السادسة عشرة من العمر ويبيعونهم إلى أصحاب المصانع والحرف، فيقومون بتشغيلهم فى أمكنة بعيدة عن رقابة الحكومة، لايكاد ينفذ منها النور، وفيها يعمل أولئك الأحداث ست عشرة ساعة فى اليوم، ولايفيدون من يوم عطلة أو راحة أسبوعية، ومنهم من يباع إلى أصحاب مزارع قصب السكر الواسعة التى تقع في جنوب البلاد وتضرب حولهم الأسلاك الشائكة ويقيمون فيما يشبه معتقلات الأشغال الشاقة.

وبصورة عامة فإن حجم تجارة الرقيق في عالمنا المتحضر اليوم يصل إلى ٢٠٠ مليون إنسان معظمهم من النساء والأطفال، يتم تداولهم عبر القارات كما تقول الأمم المتحدة وذلك بالإضافة إلى تجارة الأعضاء البشرية)[١].

فأين العدالة فى عالم اليوم؟

٤- انتشار الجريمة والتفكك الأسرى:

ومن نتائج ابتعاد الغرب عن الدين التفكك الأسرى وانتشار

(١) انظر: مجلة العربى عدد ٤٧٥ يونيو ١٩٩٨ مقال شوقي رافع.

الجريمة، ويكفينا أن نلقى نظرة على الإحصائيات التى ذكرها بعض الساسة صناع السياسة الغربية لكى نعرف مدى المأساة التى يعيشيها الغرب من جراء ذلك.

فعلى سبيل المثال ذكر ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق[1] أن ٤٠٪ من كل الأطفال المولودين فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩١ ولدوا لأمهات غير متزوجات وبين السود وصل الرقم إلى ٦٨٪، وفى معظم المناطق فى قلب المدن تزيد النسبة عن ٨٠٪ .

ويقول الدكتور روبرت كرين[2] مستشار الرئيس الأمريكى نيكسون : (ثلث الأطفال في أمريكا هم الأيتام بمعنى أنهم لايعرفون آباءهم وترتفع النسبة في المناطق القريبة من المدن إلى ٨٠٪.

(وفي أمريكا مليون ونصف المليون طفل يجرى إجهاضهم كل سنة لسبب بسيط وهو أن الآباء والأمهات يعتبرون الأطفال مزعجين غير مراعين حق الحياة).

ويقترح نيكسون[3] علاجاً لهذه المشكلة التى يسميها سرطاناً

---

(١) انظر : ريتشارد نيكسون : مابعد السلام ترجمة: محمد عبد الحليم أبو غزالة ص٢٢٩.

(٢) انظر لقاءه مع مجلة الوعى الإسلامى عدد ٣٦٢ شوال ١٤١٦ هـ مارس (آذار) ١٩٩٦م، وروبرت كرين هذا قد هداه الله تعالى فأسلم وتسمى بإسم فاروق عبد الحق.

(٣) انظر: نيكسون مابعد السلام ص ٢٣١.

فيقـول :(بطريقة وبأخرى الاتجاه الأساسى الذى يجب أن نسيـر فيه إذا كانت لدينا النيـة الجادة لعلاج السرطان الذي يأكل مـدن أمريكا ويدمر أسرها يجب إجـبار الذكور من الشـباب على اكتـشاف أنهم لايمكنهم المضى فى تحويل صـغار السن من الفتـيات إلى حوامل طوعـاً أو كرهاً دون تحمل النتائج.

(يجب إعادة بناء كيـان الأسرة كوحدة أساسـية اجتماعيـة لتربية الأطفال، يجب أن نخلق ضـغوطًا اجتمـاعية قوية نحـو إعطاء الأطفال حق أن يكون لهم آباء وأمهات ...).

وللمرء أن يسـأل نيكسون الذى كـان يوماً ما أقـوى رجل لأقوى دولة في العـالم، ولماذا الغرب بالذات يعـانى من هذا التفكـك الأسرى دون الشرق ولاسـيما دون العـالم الإسلامى الذي يتـمتع بحيـاة أسرية طيبة؟

إن رقم واحـد من كـل ثلاث أمـريكيين لايعـرفـون آباءهم رقم مخيف حقاً إنه رقم لايخطر ببال الشرقى ولا سيما المسلم أن يكون فى أية دولة فى العالم.

إنه الابتـعاد عن الدين والتـوغل في المادة وحبهـا، وطغيـان المادة على العلاقات بين الناس ومنها العلاقات الأسرية.

وأخيرا يسجل نيكسون فى فصل تحت عنوان : الله والعائلة، رأيه

الحاسم فى هذه المشكلة القائمة فيقول[1] : (إن كل قائد أمريكى منصف يعرف بوضوح أن انهيار الأسرة هو عفن يأكل أسس أمة عظيمة وأن آثار ذلك تشعر به بحدة في مدننا حيث جيل ضائع يتم تنشئته دون أسرة ناجحة ...).

أما عن الجريمة فيذكر جيمس بيكر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق فى مذكراته أنه منذ توليه منصب المدعى العام لولاية تكساس في عام ١٩٧٨ تصاعدت نسبة جرائم العنف فى الولايات المتحدة حتى بلغت الضعف تقريبا إذ تبين الإحصائيات أن أربعة من كل خمسة أمريكيين سيكونون ضحية من ضحايا جرائم العنف مرة واحدة على الأقل خلال حياتهم.

ويقول : إن المجتمع الأمريكى تقع فيه جريمة قتل كل ٢٢ دقيقة وجريمة اغتصاب كل ٥ دقائق وسطو مسلح كل ٤٧ ثانية[2].

فإن صح هذا، وهو صحيح بلاشك، بل الجرائم الفعلية لابد أن تكون أكثر من ذلك، لأن هذا العدد هو ما بلغ عنه وسجل فى محاضر رسمية أما مالم يبلغ عنه فكثير أيضاً، نقول ، إن صح هذا، فإنه يعنى ٧٢ جريمة قتل و٢٨٨ جريمة اغتصاب و١٥٠٠ جريمة سطو يومياً تحدث في الولايات المتحدة الأمريكية، فإذا ما أردنا أن نعرف ذلك فى الشهر،

---

(١) انظر : نيكسون : ما بعد السلام ص ٢٥١.

(٢) انظر مجلة النور العدد ١٢٠ نوفمبر ١٩٩٤.

وفى السنة، فإن الأعداد لابد أن تصل إلى الآلاف بل مئات الألوف.

ويقول الدكتور روبرت كرين [1] مستشار الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون (في أمريكا الآن أكثر من مليون أمريكى فى السجن، وتشير الاتجاهات الحالية بأن هذا العدد يمكن أن يتضاعف في أقل من عشر سنوات قادمة).

(والمشكلة الحقيقية أن السياسيين لايعرفون سبب موجة الجريمة التى تجتاح أمريكا الآن وبناء مئات الآلاف من السجون الجديدة تبين فقط تأثيرات الحضارة المتفسخة...).

ونشرت صحيفة هيرالدتربيون [2] الأمريكية: (أن جرائم الأحداث المتعلقة بالمخدرات فى الولايات المتحدة الأمريكية تضاعفت خلال السنوات العشر الماضية وذلك بسبب تزايد أعضاء عصابات المخدرات التى يزيد على نصف مليون ينتمون إلى حوالى ٢٥ ألف عصابة، (وفي عام ١٩٩٠ ألقى القبض على أكثر من ٦٤ ألفا من الأطفال الأحداث لمحاكمتهم وفى عام ١٩٩٥ زاد الرقم ليصل إلي أكثر من (١٤٧) ألفاً وذلك طبقاً لإحصاءات صادرة من مكتب التحقيقات الفيدرالى).

---

(١) انظر : مجلة الوعى الإسلامى العدد ٣٦٢ شوال ١٤١٦هـ مارس (آذار)١٩٩٦م في حوار مع المجلة.

(٢) نقلت عنها: جريدة الوطن الكويتية العدد ٧٥٧٠/ ٢٠١٦-السنة ٣٦ الجمعة ١٤ مارس ١٩٩٧ بتصرف.

رأى الإسلام فيما آلت إليه حال الغرب

الدين فطرة:

رأينا أن الغرب عندما ترك الدين واكتفى بالعلم تدحرج فى طريق الفساد الخلقى من انهيار الأسرة والتفكك الأسرى وانتشار الجريمة بمعدلات تنذر بكارثة حقيقية، وفقدان الأمن والعدالة الاجتماعية بين الناس، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقط وإنما أصبح مصير الكوكب الأرضى الذى عاش عليه الإنسان منذ مئات الألوف من السنين على شفا جرف هار من الهلاك والفناء، وأصبح بقاء النوع الإنسانى فى خطر عظيم كما عرفنا.

والحقيقة فإن هذا مايؤكده الإسلام بالنسبة لكل من يترك الدين وعبادة الخالق سبحانه وتعالى .

ذلك لأن التدين فطرة في الإنسان، والسير بالبشرية ضده يعنى السير بها ضد طبيعتها ولاشك أن ذلك وضع شاذ لايمكن أن يستمر أو يكتب له البقاء والدوام.

وقد أخبر القرآن الكريم عن فطرة التدين فى الإنسان فقال (وأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله)[1] وفى الآية أمر صريح للإنسان أن يقيم وجهه للدين وسمى

---

(١) سورة الروم آية ٣٠.

ذلك فطرة.

وقال الرسول ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ...(١)

فأخبر أن الإنسان يولد على الدين الحق، وأن ذلك كمال حيث عبر عنه بالبهيمة الجمعاء، وأن وصف الانحراف عنه، وتركه وعدم الالتزام به، بالنقص والشذوذ، وعبر عن ذلك بالجدعاء.(٢)

والله تعالى إذ يرسل الأنبياء بالدين الحق وعبادته تعالى فإنما يقيم بذلك التوازن والانسجام بين جنس البشر وسائر الكائنات فى هذا الكون الذى يسبح كل مافيه جماداً وحيواناً ونباتاً باسم الخالق سبحانه وتعالى.

قال تعالى :﴿ سبح لله مافى السماوات ومافى الأرض﴾(٣).

وفى آية أخرى : ﴿ يسبح لله مافى السماوات وما فى الأرض﴾(٤).

---

(١) انظر: فتح البارى شرح صحيح البخارى ٣/ ١٧٦ ومابعدها.

(٢) انظر فى هذا المعنى : ابن تيمية: في الكلام على الفطرة ص ٣٣٦ ضمن مجموعة الرسائل الكبرى.

(٣) سورة الحشر :٤.

(٤) سورة التغابن : الآية ١.

وفى موضع آخر: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾ (١).

وقد كان الله تعالى يأمر الجبال أن ترجع التسبيح مع نبى الله داود عليه السلام وقد أخبر عن ذلك فى كتابه الكريم فقال: ﴿ ياجبال أوبى معه والطير﴾ (٢).

وفى قصة سليمان عليه السلام الذى كان يعرف لغة الحيوانات أن الهدهد اشتكى من قوم بلقيس أنهم يسجدون للشمس من دون الله تعالى.

﴿وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾ (٣).

---

(١) سورة الإسراء: آية ٤٤.

(٢) سورة سبأ: آية ١٠.

(٣) سورة النمل: الآيات ١٧-٢٨.

وقد ثبت فى الحديث أن الحجر والشجر كانتا يسلمان على الرسول ﷺ إرهاصاً قبل بعثته، وأن جذع الشجرة قد بكى عندما صنع المنبر له عليه السلام.

وبناءً على ذلك فإن الإنسان عندما يتدين ويلتزم بتعاليم الدين فإنما يسير منسجماً مع طبيعته ونفسه ومع الكون الذى يعيش بما فيه من ملايين الكائنات، وعندما يفعل عكس ذلك وينسى تعاليم خالقه سبحانه وتعالى فإنما يختار وضعاً شاذاً مع نفسه ومع الكون لايمكن أن يستمر ويكتب له البقاء.

والحقيقة فإن القرآن الكريم قد أخبر عن مهمة الإنسان التى لأجلها خُلق وهى عبادة الله تعالى، فقال :﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (١) وبالتالى فإنه - فى حالة عدم تحقيقها- يفقد مبرر وجوده وهدفه(ذلك لأن الآية تشمل النفى والاستثناء، وهما أقوى صور الحصر والقصر فى اللسان العربى، ومعناها النفى البات من جهة والحصر الكامل من جهة أخرى، فكأنها أى الآيات نفت أى غاية للوجود البشرى غير عبادة الله، وحصرت غاية هذا الوجود كله فى عبادة الله تعالى) (٢).

ولاتعارض بين ذلك وبين تلك الآيات التى تبين أن الهدف من

---

(١) سورة الذاريات : آية ٥٦.

(٢) انظر محمد قطب: مفاهيم ينبغى أن تصحح ص ١٧٤ بتصرف واختصار.

خلق الإنسان هو الابتلاء كقوله تعالى :﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ (١) . وقوله تعالى :﴿ خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (٢) ، (وذلك لأن الابتلاء يكون للإنسان إذا كان يعبد الله ويطيعه ويخضع له أم يعبد الشيطان فيتجاوز حدود الله) (٣) .

معنى العبادة وشمولها :

وإذا كان غاية الوجود الإنسان على ظهر هذا الكوكب هى عبادة الله تعالى وهى مبرر وجوده فما معنى "العبادة" .؟

لقد جاءت كلمة العبادة في القرآن الكريم بمعانى عدة منها (٤) بمعنى الخضوع الذى يعد توجيهه لغير الله تعالى شركا لايغتفر، وبهذا المعنى اختلف المفسرون فى تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً إلى عدة آراء. (٥)

---

(١) سورة الإنسان : آية ٢.

(٢) سورة الملك : آية ٢.

(٣) انظر محمد قطب: المصدر السابق والصفحة (الهامش) مع التصرف والاختصار.

(٤) انظر في ذلك مثلا: المودودى : المصطلحات الأربعة ص ٩٥-١١٥.

(٥) وهناك بحث درس العبادة بهذا المعنى خاصة، فقسم آراء العلماء فى ذلك إلى عدة مجموعات أو مدارس، ثم درس معنى العبادة عند كل منها مع مناقشة الآراء والتعقيب عليها، ثم استخلص إلي الرأى الذي رآه صواباً. انظر : د. عبد الحليم أحمدى : معنى العبادة بين التأله والخضوع مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية- الكويت : عدد ١١ أغسطس ١٩٨٨.

وقد تأتى العبادة بمعنى الشعائر التعبدية، وقد يكون هذا المعنى هو المتبادر إلي الذهن لأول وهلة، والراجح أن المراد ليس هو هذا المعنى في الآية الكريمة، فهذه الشعائر إنما تستغرق حيزاً محدوداً جداً من وقت الإنسان فما حكم بقية الوقت الذى لايقوم فيه الإنسان بهذه الشعائر" كما يتساءل الأستاذ محمد قطب [1].

إذا ما أردنا أن نفسر القرآن ونظرنا إلى الآيات الأخرى فى هذا الموضوع فسوف نلحظ أنها أى تلك الآيات الأخرى تبين أيضا الهدف من خلق الإنسان مثل قوله تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة[2] ﴾ أى أن الله خلق الإنسان لخلافته ومهمة الخلافة تقتضى ألوانا من النشاط الحيوى لعمارة الأرض والتعرف إلى قواها وطاقاتها وذخائرها ومكوناتها، وتحقق إرادة الله تعالى فى استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها كما تقتضى الخلافة القيام على شريعة الله فى الأرض لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع الناموس الكونى العام". [3]

والله سبحانه وتعالى أمر الإنسان بكثير من الأعمال الأخرى غير الشعائر لكى تتم الخلافة وتتحقق عمارة الأرض، "فلابد أن تكون كلها

---

(١) انظر: دراسات قرآنية ص ١٢٠.

(٢)سورة البقرة : آية ٣٠.

(٣) انظر: سيد قطب : فى ظلال القرآن : المجلد السادس ٣٣٨٧.

داخلة فى العبادة التى خلق الله الإنسان من أجلها". (١)

ومـايدل علي ذلك عـشرات الأحـاديث التى ترتب الثـواب على أعمال تبدو دنيوية في الظاهر، منهـا: ماروى عن الرسول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعـدنى؟؟ قال : يارب ، كـيف أعودك وأنت رب العـالمين ؟ قال : أمـا علمت أن عـبـدى فـلاناً مـرض فلم تعـده؟ أمـا علمت أنك لو عـدته لوجدتنى عنده!

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ! قال : يارب ؟ كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه.

أمـا علمت أنك لو أطعـمـتـه لوجـدت ذلك عندى ؟! يا ابن آدم اسـتـسـقـيـتك فلم تسـقنى قـال : يارب : كـيف أسـقـيك وأنت رب العالمين؟! قـال : استسـقاك عبدى فـلان فلم تسقه، أمـا أنك لو سقيـته لوجدت ذلك عندى". (٢)

ويقول الرسـول ﷺ لأصحـابه فى حديث آخر فـيمـا رواه مسلم والتـرمذى" وفـى بضع أحدكم صـدقـة، قـالوا: أيأتى أحدنـا شهـوته ويكون له فيها أجر؟ قال : أرأيتم لو وضـعها فى حرام أكان عليه وزر؟

---

(١) انظر: محمد قطب : دراسات قرآنية ص ١١٩.

(٢) انظر صحيح مسلم رقم ٢٥٦٩ تحقيق : محمد فواد عبد الباقى.

قالوا: نعم قال : كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر !! [1].

ونستخلص مما ذكرنا أن كل عمل يقوم به الإنسان يعد عبادة لله تعالى وبالتالى فإن الإسلام يحطم الحاجز الذى أقامته الأديان السابقة كالنصرانية بين العمل والعبادة وبين المعبد وخارجه، وجعل العمل عبادة والعبادة عملاً، وحول الكون كله إلى معبد، يعبد فيه المرء ربه حيث أراد ومتى ما أراد."فليست هناك أعمال تعمل من أجل الدنيا. وأعمال أخرى تعمل من أجل الآخرة... وإنما هى كلها أعمال من " نوع واحد" وإن اختلفت "أشكالها" لأنها كلها "عبادة".. العمل فى الحقل عبادة. والعمل فى المصنع عبادة. والعمل فى المدرسة عبادة. والزواج عبادة . السعى إلى الرزق عبادة. وشعائر التعبد عبادة! وكلها للدنيا وكلها للآخرة فى آن ! حتى شعائر التعبد التى يظن أنها للآخرة وحدها، فهى للدنيا كذلك لأنها"تنهى عن الفحشاء والمنكر" فى الدنيا، وتبعث على التقوى فى الدنيا... فتستقيم معاملات الناس بعضهم مع بعض فى الحياة الدنيا، فى ذات الوقت الذي يقصد بها وجه الله فى الآخرة.

وكما لاتغنى عبادة الزواج عن عبادة العمل فى المصنع- والعكس- فكذلك لاتغنى عبادة الشعائر عن عبادة العمل فى المصنع... والعكس ! كل العبادات مطلوبة... كل فى مكانها ووقتها المطلوب...

---

(١) رواه مسلم رقم ١٠٠٦.

وكلها للدنيا والآخرة فى آن ..". [1]

حقيقة العبادة وجوهرها:

ولكن هل يتم ذلك أو تتحقق العبادة بمجرد قيام الإنسان بالعمل الواجب وهنا ينبغى أن نرجع إلى سنة الرسول ﷺ ، فقد اعتبر كثير من الأحاديث الأعمال- مهما عظم شأنها- من أعمال أهل النار مما ينفى عنها صفة العبادة... ويؤكد ذلك ما رواه الشيخان وابن جرير الطبرى وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال :"إن أول الناس يقضى يوم القيام عليه، رجل استشهد، فأتى به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال فما عملت فيها، قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها، قال : تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد

---

(١) انظر: دراسات قرآنية ص ١٢٩.

فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار" [1].

فانظر إلى الأعمال ، كم أنها كبيرة وعظيمة فى الأنظار ولكنها لاتساوى عند الله شيئاً، وأصحابها لايستحقون الثواب بل يسحبون إلى النار وذلك لأن الإنسان قد قام بها ليس ابتغاء مرضاة الله، وإنما تحقيقاً لشهواته ورغباته فقط وربما رياءً ونفاقاً .

وإزاء ذلك هناك أعمال بسيطة يقوم بها المرء ولكنه ابتغاء مرضاته تعالى فينال الثواب عنده سبحانه، وقد مر بنا حديث الرسول ﷺ ، وفى بضع أحدكم صدقة"، ومن ذلك ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :"إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة" [2].

وقال ﷺ :

إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل فى فم إمرأتك [3].

وقد ربط الإسلام بين النية وثواب الأعمال فقال الرسول ﷺ إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلي الله

---

(١) متفق عليه : انظر: النووى على مسلم جـ ١٣ صفحة ٥٠ وفتح البارى على البخارى جـ ٦ ص٢٣و٢٥ وانظر أيضا تفسير الطبرى جـ٧ ص٩و١٠.

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ١٢٦.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٢٧.

ورسوله فهجرته إلي الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه [1].

ترك الدين طريق الهلاك:

وهكذا نستخلص مما ذكرنا :

١- أن للعبادة معنى شاملاً يشمل كل مايقوم به المرء من عمارة الأرض ولا تقتصر على الشعائر التعبدية فقط.

٢- أن جوهر العبادة وحقيقتها ابتغاء مرضاة الله تعالى فلو غاب عن عمل ما، لم يعد العمل عبادة بل قد يستحق صاحبه النار.

معنى ذلك أن الله تعالى يأمرنا أن يكون طلب مرضاته محور حياتنا وأساس أنشطتنا فى الحياة أفراداً وجماعات، فإذا ما انتفى هذا الهدف أو بدأ في التراجع من محور الحياة ومحور أنشطتنا إلي هامشها نكون قد بدأنا نفقد مبرر وجودنا عند الله تعالى وعندئذ نكون قد كتبنا بداية النهاية لأنفسنا ووجودنا فى الكون بأيدينا.

ويدل على ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة الذى يطالب المرء بأن يكون حبه سبحانه وتعالى وابتغاء مرضاته لديه فوق حب كل شيء أو إنسان آخر مهما كان قريباً له أى أن يكونه حبه محور النشاط الإنسانى، يحركه ويدفعه نحو قيامه بأنشطته المختلفة فى الحياة قال تعالى :

---

(١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ١/ ٧-١٥ وانظر أيضا ١/ ١٢٦.

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين﴾ (١).

فطالما تسير البشرية في طريق عبادة الله تعالى تهدف إلي طلب مرضاته من كل ماتقوم به من الأنشطة فى الحياة، فإنها تملك مقومات وجودها وبقائها فإذا ما انحرفت عن هذا المسار، وقام كل إنسان بأعماله تحقيقاً لشهواته، وابتغاء للحصول على أكبر قدر ممكن من متطلبات الحياة المادية، وبدأ التكالب على المادة والحصول عليها بين البشر دون مراعاة أية مبادئ أو قيم، فقدت البشرية تلك المقومات وسجلت بداية النهاية لوجودها وبقائها، لأن البديل فى تلك الحالة أن يطلق كل واحد منهم أفراداً وجماعات العنان لغرائزه يريد إشباعها دون النظر إلي الحلال والحرام أو إلى حقوق غيره، فيتحول الكون إلى ميدان للسباق الرهيب يأكل فيه القوى الضعيف ثم يدور الصراع بين الأقوياء إلي النهاية المحتومة، وبهذا يمكن أن نفهم السر فى خلق أقوام ثم إهلاكها وخلق أقوام آخرين ليعبدوه حق العبادة.

يقول تعالى عن قوم عاد :﴿واذكر أخا عاد، إذ أنذر قومه بالأحقاف، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله

---

(١) التوبة : آية ٢٤.

إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ (١).

ويقول :﴿ ... فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا: من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون، فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ..﴾ (٢).

ويقول تعالى عن قوم ثمود :﴿..... وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ...﴾ (٣).

ويقول عن قوم لوط : ﴿... فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود..﴾ (٤).

ويقول عن قوم شعيب : ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ (٥).

وقبل هؤلاء جميعاً يقول تعالى عن نوح عليه السلام وقومه :﴿فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر،

---

(١) سورة الأحقاف : آية ٢١.
(٢) سورة فصلت: الآيات ١٥-١٦.
(٣) سورة فصلت : الآية ١٧.
(٤) سورة هود: الآية ٨٢ .
(٥) سورة الشعراء : الآية ١٨٩.

وفجرنا الأرض عيوناً فألتقى الماء على أمر قد قدر، وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾ [1].

يقول ابن قيم [2]: فلولا النبوات لم يكن فى العالم علم نافع البتة ولا عمل صالح ولا صلاح في معيشته،ولا قوام لمملكة، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التى يعدو بعضها على بعض..."، ثم يقول [3]" مشبها الدين بالروح للجسد ولا حياة للجسد بدون روحه "فالعالم حينئذ روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه.." ثم يربط بين بقاء العالم واستمرار الجنس البشرى وبين الدين فيقول [4]: "ولهذا إذا تم انكساف شمس النبوة من العالم ولم يبق فى الأرض شيء من آثارها البتة، انشقت سماؤه وانتثرت كواكبه وكورت شمسه وخسف قمره ونسفت جباله وزلزلت أرضه وأهلك من عليها...".

وواضح من كلام العلامة ابن قيم أنه يربط بين الوجود الإنسانى وبقائه فى الأرض وبين الدين، ومما يؤيد ذلك ما روى عن الرسول ﷺ:

---

(١) سورة القمر : الآيات ١٠-١٦.
(٢) ابن قيم : مفتاح دار السعادة - ص ١١٨.
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .

"يخرج الدجال في أمتى فيمكث أربعين- لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم كأنه عمرو بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله عز وجل ريحا باردة، من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير، أو إيمان، إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل، لدخلته عليه، حتى تقبضه قال: سمعتها من رسول اللهﷺ قال : فيبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لايعرفون معروفا، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ فى الصور ... الخ (١).

ويؤيد ذلك ما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذى الخلصة" وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية" (٢).

وما رواه أنس رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال :

---

(١) رواه مسلم ، انظر :كتاب : الفتن ٢٩٣٧ تحقيق محمد فواد عبد الباقى.

(٢) متفق عليه : انظر اللؤلؤ والمرجان ١٨٤١ والمعنى لاتقوم الساعة حتى تتحرك أعجاز نساء دوس من الطواف حول ذى الخلصة أى يكفرون ويرجعون إلي عبادة الأصنام، وانظر فتح البارى ١٣/ ٦٦.

لاتقوم الساعة حتى لايقال فى الأرض الله الله [1].

ومارواه أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ :" إن الله يبعث ريحا من اليمن ألين من الحرير فلا ترع أحد في قلبه"- قال أبو علقمة:"مثقال حبة وقال عبد العزيز: مثقال ذرة- من الإيمان إلا قبضته" [2].

"لاتقوم الساعة إلا على شرار الناس" [3].

وورد في أحاديث أخرى أنه لن تقوم الساعة إلا على لكع بن لكع أى كافر بن كافر. [4]

كما ورد في أحاديث أخرى أن يأجوج ومأجوج بعد موتهم"يرسل الله طيراً فتحملهم حيث شاء الله، وتصبح الأرض كالمرأة، وتنبت، وبينما الناس كذلك، إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن ومسلم فيبقى أشرار الناس يتهارجون تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة. [5]

---

(١) رواه مسلم : انظر : كتاب الإيمان رقم ٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه : انظر : كتاب الإيمان رقم ١٨٥.

(٣) المصدر نفسه: كتاب الفتن : ٢٩٤٩.

(٤) رواه الترمذى ٢٢٠٩.

(٥) رواه مسلم : ٢٩٣٧.

ووجه الجمع بين هذه الأحاديث ومارواه البخارى عن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون" فتح البارى ١٣/ ٢٤٩، أن أمر الله هو هذا الريح الذى يهب فتقبض روح كل مؤمن انظر صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى ١٣/ ٢٥٠ كتاب الاعتصام.

والإنسان- أيا كان- يقوم بعمارة الأرض، ولكنه شتان بين من يقوم بذلك بدافع العبادة وابتغاء مرضاة الله تعالى وبين من يقوم بذلك لمجرد اللذة والاستمتاع.

يقارن الأستاذ محمد قطب بين الشخصين فيقول [1]:

أولهما ينظر إلي الأمر على أنه عبادة... عبادة لله... فيتقى الله فيما يصنع. لا يظلم ليسيطر. لايظلم ليثرى. لايظلم ليقيم" حضارة" لايظلم ليستمتع بثمار"حضارته" على حساب الآخرين. ثم .. مرة أخرى ... يتقي الله فيما يصنع، فلا يفسد" الأخلاق" ليسيطر، ولايفسد الأخلاق ليثرى. ولا يفسد الأخلاق ليقيم حضارة، ولا يفسد الأخلاق ليستمتع بثمار حضارته. أو لايجعل ثمرة ذلك كله فساد الأخلاق، بمعناها الواسع الذى يشمل الجنس ويشمل كل تعامل بين البشر بعضهم وبعض، بما فى ذلك تعامل السياسة وتعامل الاقتصاد وتعامل الفكر والفن... ثم... يتقى الله مرة ثالثة فيما يصنع، فلا يفسد"الفطرة البشرية" ليسيطر أو يثرى أو يقيم حضارة أو يستمتع بثمار الحضارة. وإفساد الفطرة أبعد مدى من إفساد الأخلاق... فطرة الذكر الذى خلقه الله ذكراً، والأنثي التى خلقها الله أنثى، وفطرة الإنسان عامة، الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله فلا ينبغى حصره فى عالم المادة وعالم الحس بحجة تعمير الأرض وإقامة الحضارات.

---

(١) دراسات قرآنية ص ١٢٨.

ويقول عن الثانى [1] : إن الحضارة الناشئة عن ذلك هى العمارة المادية للأرض وهى تيسير الحياة الأرضية وتزيينها، والانكباب على متعها ولذائذها، وتكون فى الوقت ذاته هى محاولة التغلب على الآخرين للاستئثار بأكبر قدر من المتاع، ومحاولة إخضاعهم بالقوة والقهر، سواء بالقوة المادية أو القوة العسكرية أو القوة السياسية أو القوة الاقتصادية أو القوة العلمية... أو كلها جميعا.

ونحن نرى - فى ضوء الأحاديث الصحيحة التى ذكرنا- وفى ضوء آراء العلماء من المعسكر الغربى نفسه- أن حضارة هذا شأنها تقود البشرية إلى الهاوية والهلاك.

ونختم هذا الموضوع بتفسير الإمام فخر الدين الرازى لقوله تعالى :﴿وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [2] إذ قال :

"... إذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير، لهم هلاك مثل هلاك من تقدم، ذلك لأن الشىء إذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه لايحفظ ، وإن كان فى موضع ، يخلى المكان منه.

ألا ترى أن الدابة التى لايبقى منتفعا بها بالموت أو بمرض، يخلي عنها الاصطبل، والطعام الذى يتعفن، يبدد ويفرغ منه الإناء، فكذلك الكافر إذا ظلم ووضع نفسه فى غير موضعه خرج عن الانتفاع، فحسن

---

(١) مفاهيم ينبغى أن تصحح ص ٣٣٩.

(٢) سورة الذاريات : الآية ٥٦.

إخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به ".[1]

(١) مفاتيح الغيب :١٤/ ٢٢٧-٢٨٣.

* وهناك تفسيرات أخرى للآية فقد اختلف المفسرون حول تفسيرها إلى أقوال عديدة ويبدو أن سبب الاختلاف يرجع إلي وجود طوائف من الإنس والجن لايعبدون الله تعالى مثل الكفار، بل أحيانا من المؤمنين أنفسهم كالصبيان والمجانين... الخ فكيف تتحقق الإخبار بأنهم مخلوقون جميعاً للعبادة إذ لو أرادها سبحانه منهم، لم يتخلف ذلك لاستلزام الإرادة الإلهية للمراد مع أن التخلف محقق بالمشاهدة (انظر تفسير روح المعانى ٢٧/ ٢١- مكتبة امدادية- ملتان).

ولهذا ذهب البعض إلي تفسير الآية بأن المراد هم المؤمنون الذين ذهب العلم الإلهى أو علم الله تعالى أنهم يعبدون الله تعالى، وبالتالى فالآية عامة والمراد منها خاص، وبهذا قال القشيرى، كما ينقل عنه القرطبى في تفسيره(انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٥٥ سورة الذاريات، مناهل العرفان، بيروت).

"والآية دخلها التخصيص على القطع، لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى :"ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس" ومن خلق لجهنم لايكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم، وهو كقوله تعالى :﴿قالت الأعراب آمنا﴾ وإنما قال فريق منهم، ذكره الضحاك والكلبى والفراء والقتبى.

ويؤيد ذلك ماورد في قراءة أخرى :"وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون" (المصدر السابق، وانظر أيضا تفسير روح المعانى ٢٧/ ٢٢).

وذهب البعض إلي أن الآية باقية على عمومها والمراد هنا هو التسخير أى أن الجميع مسخرون، كرها أو طوعا لإرادة الله تعالي الكفار كرها والمؤمنين طوعا(المصدر السابق ١٧/ ٥٦ وقد رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه).

وقريبا إلى ذلك ماذهب إليه البعض من أن المراد هو التوحيد أى إلا أن يوحدوا الله، والجميع يدل على التوحيد، يستوى فى ذلك الكافر والمؤمن، الأول عند الشدة، والمؤمن عند الشدة والنعمة (المصدر السابق ١٧-٥٧).

ويدل عليه قوله تعالي :﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾.

والحقيقة فإن الخلاف في هذا الموضوع يرتفع لو فرقنا بين ماهو كائن وما يجب أن يكون.

ولتوضيح ذلك نقول: إن التلميذ في المدرسة أو الجامعة يجب أن يدرس، ولهذا

فتحت الجامعات والمدارس، وحضر هو بنفسه وطلب الالتحاق بها ولكن الواقع والكائن أن فئة - كثيرة أو قليلة منهم- لايفعلون ذلك، فالآية القرآنية هنا تخبر عما يجب أن يكون عليه، فالجميع مطالبون بالإيمان والعبادة، لكن الكائن هو أن البعض يعبد والبعض الآخر لايعبد الله تعالي ولهذا يقول الله تعالى، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب.

والآية هنا تتحدث عما هو كائن، بينما تتحدث فى "وما خلقت ... عما يجب أن يكون".

وبالتالى فإنها تتحدث عن المخلوقات ذات الإرادة والاختيار، سواء الكفار منهم أو المؤمنون، فهى بالتالى تتحدث عن العبادة طوعاً واختياراً وليس عن العبادة كرهاً.

ولهذا أشار صاحب روح المعانى إلي التفرقة بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية فقال:"لقد سمعت منهم من يقسم الإرادة إلى شرعية تتعلق بالطاعات وتكوينية تتعلق بالمعاصى وغيرها، وعليه يجوز أن يبقى الجن والإنس على شمولهما للعاصين (انظر روح المعانى ١٧-٢٢).

والذي فصل في هذا الأمر هو الإمام ابن تيمية في تفسيره للآية إذ يقسم الإرادة إلى: الإرادة الكونية وهى الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التى يقال فيها ماشاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن، والإرادة الدينية الشرعية، وهى محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى.

ثم يقول :"وإذا كان كذلك فمقتضى الكلام فى قوله:" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، هذه الإرادة هى الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لايقع فهو العمل الذى خلق العباد له، أى هو الذى يحصل كما لهم وصلاحهم الذى به يكونون مرضيين محبوبين "(انظر :دقائق التفسير ٣/ ٥٢٨و٥٢٩ باختصار، مؤسسة علوم القرآن).

ونرى أن الإرادة الكونية تعبر عما قلنا وهو: ماهو كائن فعلا فالواقع والكائن أن الله سبحانه وتعالى خلق الشر والمعصية، وأن امتناع العاصى والكافر عن الطاعة والإيمان لايحدث فى الواقع إلا بإرادة الله تعالى أما الإرادة الشرعية فتعبر عما قلنا وهو: مايجب أن يكون.

أى أن الله أوجب على العباد جميعا عبادته وطلب منهم ذلك سواء كانوا مؤمنين أو كفارا.

ومعنى ذلك أن الهدف الذى خلق لأجله الإنسان هو عبادة الله تعالى ، فإذا انتفى الهدف، من الطبيعى أن ينتفي معه وجود الإنسان الذي يكون عندئذ فقد مبرر وجوده، فيحق له الهلاك.

على أن الهلاك الذى يستحقه الكافر لايخصه هو ، وإنما يعم البشرية كلها- كماهو الواقع الذى رأيناه، وكما يخبرنا القرآن الكريم بقوله :﴿واتقوا فتنة لاتصيبن الذى ظلموا منكم خاصة﴾ (١).

وقال النبي ﷺ :"مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى أعلاها، فكان الذين فى أسفلها يمرون بالماء على الذين فى أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه،فقالوا ما لك؟ قال تأذيتم بى ولابد لى من الماء فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم . (٢)

وهكذا نعرف أيضاً أن الدين والإيمان بالله وابتغاء مرضاته صمام الأمان وهو حياة وبقاء، وأن الإلحاد عدم وفناء، والدعوة إلي الله تعالى إنما هى دعوة إلي الحياة، كما أن الدعوة إلى الإلحاد وعزل الدين إنما هى دعوة إلى الفناء والعدم.

---

(١) سورة الأنفال : آية ٢٥.

(٢) رواه البخارى : انظر :فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ٥-ص ٢١٦-٢١٧ كتاب الشهادة.

صناع الفكر والسياسة

يدقون ناقوس الخطر

وينادون بالعودة إلى الأخلاق والدين

رأينا أن الغرب عندما ابتعد عن الدين واختار لنفسه طريق المادة ، فقد تقدم تقدماً مادياً عظيماً لاشك فيه، ولكنه تقهقهر فى الوقت نفسه روحياً وخلقياً فكان من نتائج ذلك ما رأينا من الآثار المدمرة للبشرية، وهو مايؤكده الإسلام كما رأينا بالنسبة لكل من يترك الدين، وقد انتبه المفكرون وصناع السياسة والثقافة أيضا في الغرب إلي الكارثة التى سوف تحدث إن لم يتادركوا الأمر، فقاموا يدقون ناقوس الخطر، ومن هؤلاء المفكر والروائى الروسى الشهير الكساندرسو لجنتون الحائز على جائزة نوبل والذى اختلف مع النظام الشيوعى فى بلاده التى طردته فاستقبله الغرب استقبال الأبطال، واستقر به المقام فى الولايات المتحدة، وقدمت له جامعتها العريقة هارفارد، الدكتوراه الفخرية، وحين ذهب إلى حفل استلام الدكتوراه وقف يخطب بما لم يكن متوقعاً، إذ قال ضمن ماقال[1] :"مازال الغرب يقيس درجة تقدم كل بلد بدرجة اقترابه من الحياة الغربية، فى حين أن هذا ينطوى على نقص خطير فى ذهنية الغرب.

ويشن سولجنتسون حملة هائلة على الصحافة والإذاعة

---

(١) انظر فى ذلك : مجلة العربى الكويتية: العدد ٢٣٦ يوليو١٩٧٨ .

والتلفزيون، لأنها فى سبيل المادة فقط تبحث عن الإثارة فى الدرجة الأولى، فسرقة أسرار البنتاجون ونشرها مقبولان والصحافة الجنسية الصارخة مقبولة، وحوادث النصب والسرقة والقتل والاغتصاب تتصدر الأنباء، وهى محور الأفلام فى السينما والمسلسلات فى التلفزيون، ونشر أدق خصائص حياة الأشخاص مقبول، لأنه من حق كل فرد أن يعرف ... الخ".

ويرى سولجنتسون أن الغرب قد فقد شجاعته في مواجهة الأخطار والمشاكل، وأن مخططى السياسة في الغرب، رغم أن الغرب أقوى إلا أنهم حين يفكرون فى احتمال الحرب مع الاتحاد السوفيتى يحاولون الاستعانة أيضا بطرف آخر يضحى بدلهم وهو الصين!

وأخيرا يري سولجنتسون أن مشكلة الغرب تكمن فى ترك الدين وتمرده على القيم الروحية وجعل القيم المادية هى أساس الحياة ومحور الأفكار وبرهان على التقدم والرفاهية المادية في كل شيء. طموح الفرد مادى وعود الزعماء مادية، ثقافة الإذاعة والصحافة والتلفزيون مادية، مادة أكثر واستهلاك أكثر ومقتنيات أكثر.

هذا التفكير المادى المطلق- يقول سولجنتسون- يلتقي فيه الشرق والغرب. فإذا كان الشرق فى رأيه مادياً وملحداً رسميا وبحكم فلسفة الدولة، فالغرب يصل إلي نفس النتيجة عن طريق آخر... طريق الانغماس في المصلحة والمادة وحب الاقتناء والاستهلاك !!

وحضارة شأنها البحث عن اللذة، والاستمتاع، والمزيد من الرخاء لايمكن إلا أن تكون حضارة شائخة، خائفة، تهاب الموت وتكره التضحية.

"ويتقد القول بأن الإنسان هو الغاية وسعادته هى الهدف. ذلك لأن الإنسان مخلوق ناقص. فيه مزايا وصفات ولكن فيه غرائز وله أطماع، ومليء بالعيوب. فلو أعفينا من أى سلطة روحية أعلى، تتحول الدنيا إلى غابة يحميها القانون!".

وإذا كان هذا رأى هذه الشخصية الأدبية الشهيرة التى نالت إعجاب الغرب ومنحها أعظم الجوائز، جائزة نوبل، فهناك شخصية أخرى قد تفوقها شهرة وتكريما من قبل الغرب وهو العالم والطبيب والجراح المعروف الكسيس كاريل (١٨٧٣-١٩٤٤) الذى يدق ناقوس الخطر مما آلت إليه الأحوال في الغرب ويعزو ذلك إلي الفساد والانحلال الخلقى كما يعزوه إلى عدم معرفة الإنسان بنفسه، عدم معرفة الإنسان بالإنسان، وعدم تقدم علم الإنسان مقابل تقدم علم الجماد حسب تعبيره فلنستمع إليه يقول[1]:

"إننا نواجه مشاكل أعظم خطورة تحتاج إلي حل سريع، إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء علي إسهال الأطفال والسل والدفتيريا والحمى التيفودية... الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال، فهناك

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ٣٦.

عدد كبير من أمراض الجهاز العصبى والقوى العقلية... ففى بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون فى المصحات على عدد المرضى الموجودين فى جميع المستشفيات الأخرى، وكالجنون، فإن الاضطرابات العصبية، وضعف القوى العقلية آخذة فى الزيادة . وهى أكثر العناصر نشاطاً في جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر... إن الفساد العقلى أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التى قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن.

ثم يعيد ضعف العقل إلى ضعف الأخلاق فيقول[1] : "إن العقل نفسه لايلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق".

"فقد بقى المستوى العقلي منخفضاً فى الولايات المتحدة علي الرغم من زيادة عدد المدارس والجامعات زيادة مطردة".

ويقول فى موضع آخر[2]: إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقياً وعقليا إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتى ستكون عودتها إلي البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ويعقب على ذلك بما هو أدهى وأمر فيقول[3]:"ولكنها لاتدرك ذلك".

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق – ص ٤١.

(٣) المصدر السابق – ص ٤٢.

ويقول :[1] "وما جدوى زيادة الراحةوالفخامة والجمال والمنظر إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع، حقا إنه لما لايستحق أى عناء أن نمضى في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقى".

وينقد الحياة الغربية وحضارتها باعتبارها تهتم فقط بالإنتاج والربح دون أن تهتم بالإنسان، فالسعى فيها كل السعى إلى الحصول علي أكبر قدر ممكن من المال، حيث تبنى المصانع وتبنى ناطحات السحاب دون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريق الحياة الصناعية على الإنسان، إذ الهدف هو المال والربح فقط فيقول[2] : لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالا تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية... إذ أن الصناعة العصرية تنهض علي مبدأ"الحد الأقصى من الإنتاج بأقل التكاليف" حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال. وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم... لقد بنيت المدن الكبرى دون أى اهتمام بأمرنا ... فأشكال ناطحات السحاب ومساحاتها تتوقف تماما على الحد الأعلى من الدخل من كل قدم مربع من الأرض، وعلى تقديم المكاتب

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ٣٦.
(٢) المصدر السابق ٣٨-٣٩.

والمساكن التى ترضى السكان وأصحاب الأعمال وتوافق رغباتهم، وقد أدى ذلك إلي بناء عمارات هائلة تتكدس بداخلها كتل كبيرة من البشر... وطريقة الحياة هذه تعجب القوم العصريين، فبينما يستمتعون بالراحة والترف اللذين يتوافران فى مساكنهم، فإنهم لايدركون أنهم يحرمون من ضرورات الحياة... إن المدينة العصرية تتكون من مبان هائلة، بينما تمتلئ شوارعها الضيقة برائحة البترول، وذرات الفحم والغازات السامة، كما تمزق أعصابهم ضوضاء سيارات الأجرة والنقل والأتوبيس، وتحتشد بصفة دائمة جماهير غفيرة من الناس... وهكذا يتضح أن من خططوا هذه المدن لم يقيموا وزناً لخير سكانها.

وينقد الكسيس كاريل وضع الأسرة الغربية ويشكو من انحلالها فيقول :[1] "إن التناسل في أكثر الشعوب تحضراً آخذ في التناقص كما أنه لاينجب إلا نسلاً ضيعاً، فقد أتلفت النساء أنفسهن اختياراً بشرب الخمر والتدخين، كما أنهن يعرضن أنفسهن لخطر(الرجيم) رغبة منهن فى نحافة أجسامهن، وعلاوة على ذلك فإنهن يرفضن الحمل. ويعزى هذا النقص إلي تعليمهن وأنانيتهن، كما يرجع أيضاً إلى الأحوال الاقتصادية، وانعدام التوازن العصبى، وعدم استقرار الحياة الزوجية والخوف من العبء الذى يلقيه الأطفال الضعفاء أو الفاسدون على عاتق الآباء والأمهات.

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : ص ٢٣٧.

ويقول في موضع آخر[1]: " لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاماً... ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن، أو مطامعهن الاجتماعية أو مباذلهن، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية أو لعب البريدج، أو ارتياد دور السينما، وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل... إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة... إن الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع جراء من نفس عمرها فى حظيرة واحدة لاتنموا نمواً مكتملاً كالكلاب الحرة التى تستطيع أن تمضى فى أثر والديها... والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين، وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء. لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقا للقوالب الموجودة فى محيطه... إذ أنه لايتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين فى مثل سنه، وحينما يكون وحده فقط في المدرسة فإنه يظل غير مكتمل. ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه يحتاج إلي عزلة نسبية واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة.

ويستخلص من كل ماذكر أن الحضارة العصرية اليوم لاتلائم الإنسان فيقول[2]: "إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب

---

(١) المصدر السابق ٣٠٥-٣٠٦ وقارن بـ ٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧.

لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم، ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا...".

وما يقوله الكسيس كاريل العالم الطبيب، يكاد يكرره بطريقة أخرى الأديب ورجل الدين والموسيقار والطبيب الألمانى الشهير البرت شفيتزر وتأتى أهمية أقواله من أنه لم يكتف بالكلام وإنما عمل وكافح لأجل تحقيق أهدافه التى دعا إليها.

ويرى البرت شيفتزر "أن للحضارة جانبين، يتمثل أحدهما في سيادة العقل على قوى الطبيعة كما يتمثل ثانيهما فى سيادته على نوازع الإنسان" (١) ثم يتساءل (٢) أى هذين النوعين هو حقيقة وجوهر الحضارة ثم يجيب على ذلك بأنه الثانى أى سيطرة العقل على نوازع الإنسان ويعلل ذلك (٣) بسببين:

الأول إن سيادة العقل على الطبيعة الخارجية لاتمثل تقدما خالصاً، بل تقدما تقترن فيه المزايا بالمساوئ التى يمكن أن تعمل في اتجاه البربرية. فالسبب فى أن الأحوال الاقتصادية فى عصرنا فيها خطر على

(١) فلسفة الحضارة ص ٣٥.
(٢) فلسفة الحضارة ص ٣٥.
(٣) فلسفة الحضارة ص ٣٥.

الحضارة ينبغى أن يبحث عنه جزئياً في هذه الواقعة وهى أننا سخرنا لخدمتنا قوى طبيعية يمكن أن تتجسد في آلات. لكن يجب مع هذا أن تكون ثمة سيادة للعقل على نوازع الناس حيث لايستخدم بعضهم ضد بعض- ولا الأمم التى يكونونها- القوة التى أعطتهم إياها السيطرة على هذه القوى، لأن ذلك يلقى بهم فى كفاح للوجود أشد ترويعاً من ذلك القائم بين الناس الذين يعيشون على الفطرة والطبيعة البدائية.

فدعوى التحضر لاتصدق إلا بالاعتراف بهذا التمييز بين ماهو جوهرى للحضارة وما ليس كذلك".

ويصح أن نقول إن للحضارة عند البرت شيفتزر عنصرين: أحدهما العلم والآخر الأخلاق، وهذه الأخيرة هى جوهر الحضارة الإنسانية وليس الأول، ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يمكن أن يستخدم ومنجزاته لخير البشرية وشرهاً معاً وما الذى يضمن أن يستخدم البشر تلك المنجزات ضد بعضهم بعضاً؟ ويدل على ذلك ما يقوله شيفتزر في موضع آخر، إذ يتساءل ويجيب عنه فيقول (١):

ما المقصود بسيادة العقل على نوازع الإنسانية؟ المقصود هو أن الأفراد والجماهير على السواء يجعلون إرادتهم موجهة للخير المادى والروحى للكل وللأفراد الذين يتألف منهم الكل، أعنى أن تكون أفعالهم أخلاقية. فالتقدم الأخلاقى إذن هو جوهر الحضارة حقا، وليس

(١) المصدر السابق - ص ٣٦ وقارن أيضا بـ ص ٥٤.

له غير معنى واحد، أما التقدم المادى فهو أقل جوهرية، ويمكن أن يكون له أثر طيب أو سيئ في تطور الحضارة. وهذا التصور الأخلاقى للحضارة سيبدو غريبا عند بعض الناس بوصفه عقليا وعفى عليه الزمان.

وإذا كان جوهر الحضارة هو الأخلاق وليس العلم، فإن البرت شيفتزر يرى أن الحضارة الغربية على وشك الانهيار، لأنها فقدت الجانب الأخلاقي، وبالتالى فكأنها تسير عرجاء أو كالسفينة الموشكة على الانقلاب والغرق فيقول (١):

والحقائق تدعونا الآن، إلى التفكير، كما أن حركات السفينة الموشكة على الانقلاب تدفع البحارة إلى الصعود إلى ظهرها وتوثيق الأوقال والأشرعة بالحبال، لقد أصبح الإيمان بالتقدم الروحى للفرد وللإنسانية أمرا مستحيلاً علينا، لكن شجاعة اليأس يجب أن تحملنا على التمسك بهذا الإيمان، أما أننا جميعا سنريد هذا التقدم الروحى ونرجوه مرة أخرى - ذلك هو قلب الدفة الذى يجب أن نفلح فى تحقيقه، إذا كان يراد لسفينتنا في اللحظة الأخيرة أن تنتصب من جديد وتواجه الريح.

والآن فلنتساءل: هل هناك فكر حقيقى حي فى انهيار الحضارة على هذا النحو، وفى الوسائل الممكنة للخروج من هذا المأزق؟ إنا لا

---

(١) المصدر السابق ص ٤١٢.

نكاد نعثر به. فالأذكياء يتخبطون فى تاريخ الحضارة ويحاولون أن يفهمونا أن الحضارة نوع من النمو الطبيعى يزدهر فى شعوب معينة في أزمان معينة ثم يذبل بالضرورة، ثم تأتى شعوب جديدة بحضارات جديدة لتحل محل تلك التى ذَبُلت. وحينما يطلب إليهم أن يبينوا ما هى الشعوب المقدر لها أن ترثنا، حاروا فى الجواب. فليست هناك فى الواقع شعوب يمكن الظن أنها قادرة على القيام حتى بنصيب من هذه المهمة. فإن شعوب الأرض كلها قد وقعت- إلى حد كبير- تحت تأثير حضارتنا أو افتقارنا إلي الحضارة، حتى إنها جميعا تشاركنا المصير، على درجات متفاوتة. ولايعثر المرء عند أى شعب من هذه الشعوب على أفكار يمكن أن تؤدى إلى أية حركة قوية للحضارة.

فلندع جانبا النظريات البارعة والاستعراضات الشائقة لتاريخ الحضارة ولنهتم- بطريقة عملية- بمشكلة حضارتنا وما تواجهه من أخطار. ولنتساءل : ماهى طبيعة هذا الانحلال في حضارتنا، ولماذا حدث؟.

ولنبدأ فنقرر أن ثمة حقيقة أولية واضحة للعيان. والخاصية المروعة فى حضارتنا هى أن تقدمها المادى أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحى. لقد اختل توازنها. فالاكتشافات التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، قد أحدثت ثورة فى العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض، وبين الجماعات، وكذلك بين الدول.

وأثرت معارفنا وازدادت قوتنا إلى حد لم يكن فى وسع أحد أن يتخيله. وبهذا أصبحت أحوال الناس المعيشية أفضل من عدة نواح، لكن حماستنا للتقدم فى المعرفة وأسباب القوة التى بلغناها جعلتنا نتصور الحضارة تصوراً ناقصاً معيباً. فإننا نغالى في تقدير إنجازاتها المادية، ولا نقدر أهمية العنصر الروحى فى الحياة حق قدره. ولكن الحقائق بدأت تدعونا إلي التفكير. إنها تقول بلسان حاد إن الحضارة التى لاتنمو فيها إلا النواحى المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ فى ميدان الروح هى أشبه مايكون بسفينة اختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التى ستقضى عليها".

ومعنى ذلك أن ماقاله الكسيس كاريل الذى نقلنا رأيه آنفا هو نفس مايقوله البرت شيفتزر: إن الحضارة الغربية أو الغرب تقدم فى مجال علوم المادة أو علم الجماد حسب تعبير الكسيس كاريل دون أن يتقدم بالقدر نفسه فى مجال علوم الحياة أو ميدان الروح أو الأخلاق، وبالتالى فإن النتائج الناشئة عن اختلال هذا التوازن الواجب الضرورى، مدمرة للبشرية إن لم نتداركها بمنع الكارثة.

يجب أن تكون للحياة غاية وهدفاً يعيش الإنسان من أجله ويكافح لتحقيقه، هدفا يستحق العيش ويستحق الكفاح والجهاد وهذه الغاية أو الهدف(أن يكون للحياة هدف وغاية) هو جوهر الأخلاق الذي فقده الغرب.

ومـايراه الكسـيس كاريل هـو نفس مايراه شـبنجلر، الفـيلسـوف الألمانى المعاصر من أن الحضارة الغربية فى طريقها إلى الإنهيار لنظرتها المادية.

"وكان الرأى عـند شبنجلر- كـما بدأ فى كـتابه:"إنحـدار الغرب (أى الحـضارة الغـربيـة The Decline of the west - أن الحضـارة- أية حضارة- تسـير فى دورات مقـفلة- وأنها تشـبه الكائن الحى من حيث أنه يبدأ أولى مراحل حياته بالطفولة، ثم مرحلة الشباب فمـرحلة النضج فالكهولة، فـالشيخـوخة التى تنتهى لامـحالة بموت لا دافع له أو تمر فى فصول أربعة، ففى ربيعهـا تسود القيم الروحية المطلقة ويقتنع أهلها بالفلسفات المثالية، ويهتمون بالتصوير والنحت، ويلتمس مفكروها الأصالة ولايتـعلقون بالأخلاق النفعيـة، ويرتبط أفراد الأسرة بروح الود والمحـبـة، ويخـضع الناس بمحض اخـتـيـارهم لأصـحـاب المواهب من الأرستـقراطيين، وفى شتاء الحضـارة(أى في شيخوخـتها) تسود الروح الدنيـوية والمادية والنفعيـة، وتصبح القيـم التى يدينون بها نسبيـة وليست مطلقة، وتضـعف الروح الدينية وتشيع الفنون الحـسية، والقوانين الـدنيوية، ولا يهتـمون بالأصـالة والإلهام، وتتـزايد الطبقـية وتشـيع روح القطيع وتسـود الروح النفـعيـة فى سلوك الناس، ويأخـذ الوصوليون مكان الأرسـتقراطيين ويرتبط النفوذ بالثـراء وبالتالى يظهر القياصرة والدكتاتورية والغوغاء.

"وكان شبنجلر يضيق بافتتان الأوروبيين فى القرنين الثامن عشروالتاسع عشر بالعقل وتمجيد منجزاته،ورجعاً لهذا التيار رأى شبنجلرأن العقل هو الذي سيؤدي بحضارتهم إلى الدمار".

ولعل السبب فى ذلك أن الفيلسوف الألمانى يرى أن العقل يسير بلا هدف وغاية وأن المنجزات والآلات المخترعة بفضله لاتستخدم استخداماً سليماً.(١)

فإذا ما إنتقلنا إلى علم آخر من أعلام الحضارة الغربية وأحد صناع الفكر والثقافة فيها هو الأستاذ روجيه أو رجاء الجارودي فسوف نلحظ أنه يرى الرأى نفسه، وهو مثل الكسندر سولجنتسون يقارن بين شقى الحضارة الغربية، الرأسمالية والشيوعية، ليصل إلي النتيجة نفسها التى توصل إليها، فلنستمع إليه يقول(٢):

" وقع النظامان فى سياق واحد، سياق الإنتاج المادى إلى مالا

---

(١) انظرد. توفيق الطويل:الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، مكتبة التراث- القاهرة ص ٦٧وص٦٨ باختصار.

ومن الغريب أن هذا المفكر الألمانى مع آرائه الصائبة كان يجاهر بأن انهيار الحضارة الأوروبية يمكن أن يتأجل إذا تولى حكم البلاد رجل عسكرى يمتاز بالقوة، ولهذا بارك الحركة الفاشية وأثنى عليها بقيادة موسولينى، كما أنه أيد هلتر والنازيين من ورائه، ولكنهم نفروا من أفكاره وانصرفوا عنه. وأغلب الظن أنه تأثر بنيتشه وأفكاره- انظر المصدر السابق ص ٦٩.

(٢) جارودى : مشروع الأمل : ترجمة دار الآداب- ١٢٠-١٢١ وقارن بـ ١٣٦و١٤٣- ط١ مارس ١٩٧٧.

نهاية وإلي مالا غاية، الفارق فقط في الأسلوب: بين نظام يعتمد المبادرة الفردية، ونظام يعتمد الديكتاتورية الجماعية...

" أى عالم نعيش فيه؟ وأين الهدف...؟

" إننا نعانى من العيش فى عالم لاهدف له... أما مـايسمى سياسة النمو، فهى سـياسة غايتهـا تشغيل الآلة الميكانيكية أو الالكتـرونية حتى ولو كانت بلا فائدة أو ضارة مميتة...

وكل ماهو ممكن من الناحـية التكنولوجيـة فهو لازم مرغـوب فيه سواء كـان صنع قنابل ذرية بالآلاف، أو السـفر إلي القمـر والكواكب الأخرى، أو تدميـر مستقبل البـشرية بالنفايات الإشعـاعية فى المولدات النووية... نمو؟ لماذا؟ ولمن؟ لأرباح بعض الأفراد أو الهيـئات بالتلاعب بالبشرية. وليس صحيحا أن النمو الاقتصادى يسمح بتجاوز الأزمات، بل إنه يخلق هذه الأزمـات، وليس صـحيـحاً أيضـاً أنه بالإمكان وقف عجلـة النمو الاقتـصادى، فى الوقت الذى لايمـلك مليارات البـشر فى العالم الثالث شيئا مثل ملايين البشر فى البلدان الغنية، من وسائل الحياة الإنسانيـة الحقيقـية!!! لقد خلقت السوق العـالمية الغاب الحيـوانية من جديد، وفى صورة أبشع وأشد ضراوة وافـتراساً لكل ماهو نبيل ولكل ماهو حق، وصدق، وخير، وجميل، وهذا الغاب نفسه يسود حتى على المستـوى السياسـى، سواء فى البلدان الرأسمـالية أو البلدان الموصـوفة بالاشتراكية.

أما المساعدات المزعومة للعالم الثالث أو النامى أو المتخلف، فإنه بدلا من أن تقيم حواراً حقيقياً بين الحضارات، لتحديد توجهات المستقبل، فإنها تهدف إلى دمج المستعمرات السابقة القديمة، فى الطراز الغربى للنمو الأعمى الذى يزيد من صور وأشكال وأنماط التمزقات بين الطبقات والأمم على السواء، ولم يؤد امتلاك النفط وغيره، فى البلدان غير الأوروبية، إلى إعادة توزيع للأوراق، وكان يمكن أن تضع حداً لكل آثار الاستعمار والعنصرية، وتتيح تهيئة لثقافات أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، بل أدى ذلك إلى زيادة النكسات، لكثير من البلدان فى السوق العالمية، وإلي مبادلة المواد الأولية بالأسلحة التى تستعمل لتعميق التمييزات العنصرية، والاستغلالات الطبقية وتيسير الانقلابات العسكرية.

ذلك- كما يقول جارودى - هى الفرص التى فاتت من تاريخ نهاية القرن العشرين. فلا تطور العلوم، ولا هزائم الاستعمار، ولا تقدم التكنولوجيا كل ذلك لم يؤد إلي إبراز مشروع جديد للحضارة أو معنى جديد للحياة.

إننا نريد أن يكون لحياتنا معنى، ولتاريخنا هدف، نريد أن يشارك كل فرد في اكتشاف ذلك المعنى وتحقيق هذا الهدف. نريد أن يصنع الجميع تاريخ الجميع. لقد بلغت الشعوب رشدها- كما يؤكد جارودى - وأصبح مما لايحتمل أن يقرر تاريخها وحياتها غير أفرادها معاً وجميعاً.

وهكذا يرى الجارودي أن البشرية استفادت من الناحية المادية ولكنها تضررت كثيراً من الناحية الأخلاقية والروحية، كما تضررت الشعوب من آثار الاستعمار والعنصرية الناشئتان من تلك الحضارة ويطالب بأن تكون الحياة والحضارة ذات صبغة أخلاقية لها معنى وهدف.

ويقول الجارودى فى موضع آخر:(١)

القصور الذى أصاب العقل الغربي جعل الإنسان الغربى يتساءل- دائما- عن "الكيف" أى عن الأسلوب ، ويغفل السؤال عن الأسباب. هكذا يتساءل:

" كيف نصنع الأسلحة الذرية؟"، "كيف نذهب إلي القمر؟" ولا يتساءل" لماذا نصنع قنبلة ذرية؟". "لماذا نذهب إلي القمر"؟

هل هذه فعلا أشياء أساسية بالنسبة للإنسان يجعلها تأتى في المقام الأول؟ ألا يمكننا بنفس هذه الإمكانات المالية والعلمية والإنسانية أن نصل إلي أهداف أخرى؟؟ وكأننا هكذا وبهذا العقل الذي تنقصه أنبل وظيفة تلك التى قد تجعلنا نتساءل عن معنى لحياتنا وتاريخنا ولكل أعمالنا، وكأن فكرة التقدم معناها أن كل ماهو ممكن علمياً وفنياً يجب أن يكون.

---

(١) انظر : جارودى ومستقبل الحضارة ص ١٧٢ ومابعدها.

وفي هذه الأساليب التى قد نعتبرها مقدمة فإن أعظم نتاج العلم والفن في الغرب ليس في خدمة الإنسان وفى سبيل تقدمه وتحرره أو لأية أغراض إنسانية، ولكنه فقط في خدمة التنمية كتنمية ولخدمة السيطرة كسيطرة والعنف كعنف، فهو إذن فى خدمة هدم الطبيعة والإنسان وليس لخلق مستقبل أفضل له".

ويذهب جارودى إلى أن الحضارة الغربية تموت، فيقول [1]:

"وهكذا فإن حضارتنا الغربية حالياً فى سبيل الموت لا لأنها تفتقد الأساليب ولكن لأنها تفتقر إلى الغايات".

وبعد أن ينقد الغرب ونظرته المادية التى أدت إلى شقاء الإنسان حتى احتمال الفناء والدمار [2]، لايجد المفكر والفيلسوف الفرنسى ضالته إلا فى الإسلام الذى يعتنقه معتقداً أنه دين المستقبل ويقول [3]:

إن الذى يميز العالم الإسلامى ككل هو أنه لايفرق أبداً بين الإستخدامين اللذين يقوم عليهما العقل الإنسانى، ألا وهما البحث عن الأسباب والبحث عن الأغراض من ناحية، والتأمل والاستنباط اللذان يسمحان للمرء أن يرتفع من الأحداث إلي القوانين والنواميس من ناحية أخرى، أن يرتفع من غايات بسيطة إلي غايات أسمى حتى يلمس

---

(١) انظر : جارودى ومستقبل الحضارة ص ١٧٢ ومابعدها.

(٢) لقد سبق أن ذكرنا رأيه في ما آلت إليه الحضارة الغربية من دمار البشرية.

(٣) المصدر السابق.

مايشعر المرء بضالته أمام اللانهاية لهذه الإجراءات.

والحقيقة فإن المشاكل بل الكوارث الناشئة عن الحضارة الغربية أو تقدم الغرب المادى لايزعج فقط هؤلاء العلماء والمفكرين مطالبين بالعودة إلي الدين والأخلاق وإنما يزعج كذلك ساسة الغرب وصناع القرار فيه أيضاً، وقد سبق أن ذكرنا ما أورده ريتشارد نيكسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق من الإحصائيات عن الجريمة المتفشية والتفكك الأسرى فى بلاده، ورأينا رأى مستشاره السياسى روبرت كرين وما ذكره من احصائيات مما يدل على أن الإحساس بالتغيير والمناداة بالعودة إلي الروح والدين أصبحت عامة بين الصفوة أو النخبة من الغرب.

يقول الدكتور روربت كرين مستشار الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون على لسانه[1] : إن بلدنا قد يكون غنيا بالبضائع ولكننا فقراء فى الروح، فالتربية والتعليم الرديئان والجرائم المتزايدة والعنف المتصاعد والإنقسامات العرقية النامية والفقر المستشرى، وآفة المخدرات والثقافة المنهارة فى وسائل التسلية، والإنحدار في تأدية الواجب المدنى والمسئولية، وانتشار الفراغ الروحى ساهمت جميعا بفصل الأمريكيين وتغريبهم عن بلادهم...".

والدكتور روبرت كرين يشير إلى مقالة قرأها فيقول :"ويحضر

(١) انظر اللقاء معه فى مجلة الوعى الإسلامى عدد ١٩٩٦,٣٦٢ صفحة ٤٠ ومابعدها.

ذاكرتى مقالة كتبها الصحفى الأمريكى المعروف(ناثان غارولز) تحت عنوان "روح النظام العالمى، أوحى فيها أن روح الإسلام قد تصبح روح القرن الواحد والعشرين، وقد تكون العلاج الوحيد للمشاكل المستعصية التى سببتها علمانية الحضارة الغربية".

وما ذكره روبرت كرين عن رئيسه نيكسون، هو ما ذكره دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق عن رئيس جمهورية أمريكا الأسبق أيضا، ولسون إذ يقول فى كتابه"حرب أم سلام"(١) قد كتب الرئيس ويلسون ، قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالا استعرض فيه تهديد المبادئ الثورية وأعمال الشيوعية وختمه بقوله إن اختصار المسألة بأسرها هو مايلى:"إن حضارتنا لاتستطيع الإستمرار فى البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها، هذا هو التحدى النهائى لكنائسنا ومنظماتنا السياسية وللرأسماليين عندنا ولكل فرد يخاف الله أو يحب بلده".

وفي فصل بعنوان "حاجاتنا الروحية" يقول (٢):

" إن هناك شيئاً مايسير بشكل خاطئ فى أمتنا، وإلا لما أصبحنا فى هذا الحرج، وفى هذه الحالة النفسية، لايجدر بنا أن نأخذ موقفا دفاعيا، وأن يتملكنا الذعر... إن ذلك أمر جديد فى تاريخنا!

---

(١) انظر: سيد قطب: المستقبل لهذا الدين ص ٧٣- دار الشروق ١٩٨٣.

(٢) المصدر السابق : ٦٧.

" إن الأمر لايتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمى في الأشياء المادية، إن ماينقصنا هو إيمان صحيح قوى. فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً، وهذا النقص لايعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها!

"فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الإعتماد على الأشياء المادية، فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً.

"وفي بلادنا لاتجتذب نظمنا الإخلاص الروحى اللازم للدفاع عنها وهناك حيرة في عقول الناس، وتآكل لأرواحهم، وذلك يجعل أمتنا معرضة للتغلغل المعادى- كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن- ولن تستطيع أى إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا فى هذه الظروف".

"لقد تقابلنا مع أقسى الاختبارات التى يمكن أن يلتقى بها أى شعب ... وهو اختبار الحياة فى رفاهية".

"لقد قال يسوع: إن هذه الأشياء المادية سيحظى بها أولئك الذين يعملون من أجل ما أمر به الله،ومن أجل تحقيق عدالته.ولكن عندما يحدث ذلك فعندئذ يبدأ الامتحان الأكبر.لأن هذه الأشياء المادية- كما أنذر يسوع- يمكنها أن تصبح الصدأ الذى ينخر فى الأرواح.

"كذلك فإن لدينا نموذجا معروفاً. فالرجال الذين لديهم إحساس بالواجب إزاء كائن أعلى، يجاهدون لتحقيق إرادته، لأن إيمانهم يمنحهم القوة والفضيلة والحكمة المبسطة... إنهم لايبنون ليومهم فقط بل للغد، وليس لأنفسهم وتحدهم، وإنما للجنس البشرى، ومجتمع هذا أساسه ستكون من نتائجه الثروة والرفاهية للكثيرين"[1].

ويقول فى موضع آخر[2]:

(ونتيجة لذلك فإن كثيراً من قومنا قد فقدوا إيمانهم فى مجتمع حر، وكأمة فقدنا كذلك إيماننا الدينى وممارسة شعائرنا الدينية. رغم أننا ما زلنا متدينين! إننا نفرق بين الدين وممارسة الدين! ولم نعد نؤمن بأن الإيمان يتمشى مع الظروف الحديثة... ومتى تحطمت الصلة بين الإيمان والعمل، فلن نستطيع بعد ذلك أن ننمى قوة روحية نستطيع نشرها في جميع أنحاء العالم ...".

ومن الذين دقوا أجراس الخطر السفير الألمانى المعروف في المغرب مراد هوفمان إذ يشكو إنسان العصر الحاضر الذي يمارس الإلحاد، وإن لم يعتقده فعلاً، بالمعنى الحرفى للكلمة فيقول[3]

---

(١) انظر: سيد قطب: المستقبل لهذا الدين ص ٦٨ - دار الشروق ١٩٨٣.

(٢) المصدر السابق ٧١.

(٣) انظر: د. مراد هوفمان : الإسلام كبديل: ترجمة غريب محمد غريب ص ٢٥ باختصار وتصرف الرياض: ط٢ - الرياض العليا- العبيكان.

هوفمان[1] :"غدت الجماهير العريضة نتيجة ممارستها الواقعية للذاتية وللنسبية، تعيش نوعاً من الإلحاد الساذج المسطح الأبعاد متمثلا فى عبادة آلهة جديدة هى السلطة والثراء والجمال والشهرة والجنس. وبعد أن يعدد آلهة العصر الحديثة التى حلت محل الرب تعالى يرجع ذلك إلى الركون إلي العلوم الطبيعية بدلاً عن الدين فيضيف[2] :

لقد رضى هؤلاء (الملحدون بالممارسة) الإطمئنان والركون إلي العلوم الطبيعية عوضاً عن الدين الذى أقصته أو هجرته، علماً بأن العلوم الطبيعية عاجزة عن الخوض فى استكناه المسائل الروحية، إذ يرى أولئك أن تلك المسائل (ونحوها من أمور الغيب) نوع من البقايا المتحللة(ناتج انحلال) في طريقه إلي الزوال مع المسيحية اللاعقلانية، اللامنطقية.

" إن الدوافع التى مكنت اقتصادياً وعلمياً للرواج المنقطع النظير للفلسفة الوضعية، والمنهجية العلمية اللتين جعلتا من القرن التاسع عشر"القرن المعدوم الإله" دوافع إن لم تكن إلحادية، فى حقيقة الأمر، فإنها تكاد تقتصر في معظمها، أو ترتكز على النظرة اللاإرادية فى رؤية الحياة الدنيا، والتى كان من سدنتها فرباخ بشكل فج، وماركس وداروين ونيتشه وسيجموند فرويد. منذ ذلك الحين أصبح المذهب

(١) لقد أسلم السفير عام ١٩٨٠ وأحدث إسلامه ضجة كبيرة في المانيا حتى طالبت بعض الأحزاب بفصله انظر مقدمة المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

العقلى العلمى، الذى لايعترف إلا بالعقل ولا يسمح إلا بقدر ضئيل من الحواس مصدراً للمعرفة، الإيديولوجية (الدينية) المسيطرة فى الغرب سيطرة فعالة.

ويرى هوفمان أن تلك النظرة الغربية التى أدت إلي النجاح الاقتصادى أدت إلي انقلاب فى القيم والمفاهيم وتشويه الخصال الحميدة للإنسان فيقول[1] :

"إن علماء الاجتماع مثل دافيد بل، يسجلون أن النجاح الاقتصادى للدول الرأسمالية، قد قوض القيم الخلقية أو نسفها نسفاً".

" هذه الآلية التى تنسف ذاتها بذاتها تلقائياً تشوه الخصال الحميدة مثل الجد وعدم التبذير والسلوك الحسن المنضبط والصبر والإخاء والمروءة والشجاعة. ففي مجتمعات الرفاهية المسرفة والوفرة الفائضة عن الحاجة. نرى تلك الصفات الحميدة قد مسخت وشوهت أضعافا مضاعفة، أو نرى قيما جديدة وأنماط سلوك مستحدثة تحل محلها، لتتلاءم مع المجتمع الصناعى المادى بالفعل.

وفى ظل هذه القيم يرى هوفمان أن المتعة واللذة أصبحت غاية الوجود الإنسانى والنمو والربح المادى أهم قيمه وأهدافه فيقول[2] :

---

(١) لقد أسلم السفير عام ١٩٨٠ وأحدث إسلامه ضجة كبيرة في المانيا حتى طالبت بعض الأحزاب بفصله انظر مقدمة المصدر السابق. ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦.

" إن فقدان السمو فوق المادية، وبالتالى تمكن المادية المبتذلة غير المصقولة فى الشرق والغرب يثيرنهم اللذة الضاربة لدى الإنسان غير الملتزم أو غير المرتبط بوازع يزعه، والذي يتخذ من عالم أحاسيسه المادية مقياساً لكل شيء، فالمتعة واللذة غاية وجوده، وتعطشه لايروى لاهثاً خلف تحقيق الجنة الاستهلاكية على الأرض، وإلي تحقيق تلك الجنة الاستهلاكية يسعى المجتمع الصناعى حثيثاً، ولا عجب إذ أصبحت قيم هذا المجتمع الصناعى ومبادئه ومثله العليا ذات طبيعة اقتصادية :النمو، والريعية أو المربحية، والتشغيل الكامل، وتحقيق أقصى ربح، والتخصص الدقيق.

ولابد فى النهاية أن تؤدى تلك القيم والأهداف إلي إحساس الإنسان بفراغ روحى هائل.

" ولنتأمل معاً ضحايا ذلك المجتمع الصناعى وقيمة الحيدية المزعومة فحسب: إنهم يتمتعون بكل مايريدون من الإستقلال الذاتى، والحياة المؤمنة منذ المهد إلي اللحد، والحرية أو الإباحية الجنسية التى لاتعرف محظوراً أو محرما، والمخدرات على اختلاف أنواعها وأذواقها حسب كل مزاج وطلب، وأوقات الفراغ والعطلات والإجازات المكفولة قانونياً، وكافة الحقوق المدنية التى يحلم بها المرء لكنهم على ذلك كله يحسون فراغاً هائلاً يملأ وجودهم الفعلى، ويتوقون إلي الحنان والدفء البشرى من قبل الجماعة التى يعيشون معها أو ينتمون

إليهـا، وإلي سلطة زعيـم روحى (جورو)... وراء كل هذا يقـبع سؤال خطير ملح عن مغزى الحياة أو الوجود"[١].

وأخيـرا لايجد السـفير الألمانى الشـهير"هوفـمان" ضـالته إلا فى الإسلام كبديل للحـضارة الغربية لحل مشاكل الحـياة وإنقاذ الغرب من الهاوية، فيعتنق الإسـلام عام ١٩٨٠، ويكتب في الدفاع عن مبادئه التى تكفل إنقاذ البشرية كتابه :"الإسلام كبديل"[٢].

مظاهر العودة إلى الدين :

ولم تقتصر الدعوة إلي الدين علي أفراد المفكرين والساسة وسائر المثقفين الذين يبـلغ عددهم إلى المئات[٣]، بل هناك عـشرات الألوف من الناس العاديين اعتنقوا الإسلام عن قـناعة في معظم الدول الغربية، "ففى ألمانيـا مثلاً يبلـغ عدد المساجـد إلي سبعـمائة مسـجد يصلى فيـها حوالى مائة ألف مـن حاملي الجنسية الألمانية، وهنـاك ألمانيات أخريات يتـعـرفن إلي الإسـلام عن طريق الزواج من مـسلمين ويـبلغ عـددهم حوالى ٣٠,٠٠٠ ثلاثين ألفا"[٤].

---

(١) لقد أسلم السفيـر عام ١٩٨٠ وأحدث إسلامه ضجة كبـيرة في المانيا حتى طالبت بعض الأحزاب بفصله انظر مقدمة المصدر السابق. ص ٢٩.

(٢) هو طبع مكتبة العبيكان - صدر عام ١٩٩٧، انظر المصدر السابق.

(٣) اقرأ في ذلك مثلا: لماذا أسلمنا؟ جمع وتعليق عبد الحميد السحيباني، دار ابن خزيمة ط١ ، ١٩٩٥٤.

(٤) انظر : د. مراد هوفمان: الإسلام كبديل ص ٢٤٩-٢٥٠، بتصرف واختصار.

ولم يقتصر الأمر عند ذلك بل تجاوز إلى ظهور تيارات قوية مؤثرة فى الحياة الثقافية والإجتماعية تدعو إلى الأخذ بالدين والإهتمام به، ومن ذلك ظهور الفلسفة البرجماتية التى تسود الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول أوروبا فى القرن العشرين وانشقاق تيار مهم عنها هو تيار وليم جميس (١)، يدعو إلى الدين ويعتبره فكرة أصيلة يستحق الإهتمام، وقد اشتهر هذا التيار إلى درجة يعد معها الكثيرون وليم جميس هو المؤسس الحقيقى للبرجماتية وممثلها (٢).

ويوضح وليم جميس آثار الدين فى الإنسان فيذكر منها: الشعور بالوجود فى حياة أكثر سعة من حياتنا فى عالمنا الأرضى، والشعور بوجود علاقة صداقة بيني الإنسان والقوة العليا ومحبة الله تعالى (٣)، حتى يتوجه المرء بكل قدراته وملكاته وعواطفه نحو الله،ونتيجة ذلك كله تكون العلاقة بينه وبين الآخرين من البشر قائمة على العطف والحنان وإزالة التنافر والبغضاء وعدم مقاومة الشر بمثله.

كما تكون نتيجة العلاقة بين الإنسان وربه الزهد ومعناه الإعتدال في الطعام والشراب والبساطة فى الملبس والعفة عما فى أيدى

---

(١) لمعرفة المدرسة البرجماتية والفرق بين تياراتها- انظر مثلا :د. زكى نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد.

(٢) انظر : ١، م بوشنكسى : الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة :د.عزت قرنى - عالم المعرفة، الكويت ص ١٩٥ عدد ٦٥.

(٣) انظر : د. زيدان : وليم جيمس ص ١٥٩ - باختصار وتصرف.

الآخرين.[1]

وفى محاضرة ألقاها وليم جيمس في معهد القسيسين الموحدين من النصارى يقول[2] "إن لله تعالى مكانا طبيعيا فى نفوسنا منسجما مع طبيعة عقولنا كمفكرين، ولهذاي ضمن للفكرة البقاء والدوام.. ثم يعدد الصفات الخلقية التى يمكن أن نكسبها من خلال معرفتنا لصفات الله تعالى .

ويذكر الدكتور مصطفى السباعى - رحمه الله- بعض مظاهر عودة الغرب إلي الدين كدليل على التغيير الحاصل فى الغرب فيقول[3] :"إن الذي يزور البلاد الأوروبية ولاسيما سويسرا مثلا يجد من المظاهر المعتادة أن تطوف فرقة من (جيش السلام) الدينى الذي أنشأته الكنيسة بموسيقاها أهم الميادين والمنتزهات في أيام الآحاد وهذه الفرقة تتألف من شباب وشيوخ وفتيات وأطفال يرتلون التراتيل الكنسية مع الموسيقى فيجتمع حولها ويصغى إليها من يشاء من الحاضرين.

وفى لندن يشهد المرتاد لحديقة (هايد بارك) وخاصة في أيام الآحاد حلقات للخطابة الحرة، ومن بين خطبائها وعاظ من الكنيسة

---

(١) انظر : د. زيدان : وليم جيمس ص ١٦١ باختصار وتصرف.

(٢) انظر: وليم جميس : العقل والدين : ترجمة، د. محمود حب الله ص ٨٥ باختصار وتصرف.

(٣) انظر : من روائع حضارتنا: المكتب الإسلامى ص ٦و٧و١٠ بتصرف واختصار.

يحاولون أن يجتذبوا إليهم أكبر عدد من الجمهور بأبلغ أساليب التأثير، كما يشاهد فى المناطق المكتظة بدور السينما رجلاً يصعد منصة حديدية يحملها زميل له، فيعظ الناس ويشرح لهم حقائق الدين، ويقف رجل على باب إحدى دور السينما فى منتصف الطريق يعظ الناس ويحذرهم من تلك الدور المغرية المضرة بالأخلاق! يفعل ذلك بصوت عال يلفت الأنظار وعلى مرأى ومسمع من البوليس فلا يعترضه أحد ويصغى إليه من يشاء.

" وفي بلدان أوروبا يجد النازل فى الفندق بجانب سريره نسخة من الكتاب مهداة من جمعية أصدقاء الكتاب المقدس ليقرأ منه قبل نومه أو عند استيقاظه مايتذكر به دينه وعقيدته.

وفى أكثر جامعات أوروبا جمعيات باسم (الطلاب المسيحيين) لها ندوة أسبوعية يخطب فيها أحد رجال الكنيسة ويشرح حقائق الدين ومبادئه ويشترك من شاء من الطلاب فى مناقشته.

وفى ألمانيا الغربية تجبى الحكومة من الشعب الألمانى ضريبة خاصة باسم الكنيسة لتساعد الكنيسة في القيام بمشروعاتها الرامية إلي نشر الدين، وهناك فى المستشفيات فى صدر الغرفة تجاه السرير مباشرة صليب ضخم من البرونز مثبت فى الحائط، والسر فى ذلك أنه من مظاهر نشاط الكنيسة لتذكير الناس بالدين، وقد يكون للمستشفي علاقة مباشرة بالكنيسة."

وهذا الذى يقوله الدكتور مصطفي السباعى رحمه الله وربما ينطبق على ماكان عليه حال الغرب قبل عدة عقود من الزمن، أما اليوم فقد نجد فى الغرب مظاهر أكثر عمقاً ووضوحاً للتدين، وذلك على الرغم من العلمانية أو إدعاء العلمانية السائدة فيه، يقول الدكتور محمد البهى[1]:

" إن البلاد الأوروبية التى أخذت بفكرة العلمانية في مرحلتها الأولى: لم تزل ترعى المسيحية كدين، بالإسهام- من ضرائب الدولة نفسها- فى مساعدة التعليم الدينى فى مدارس الجمعيات الدينية وهى لاتحول إطلاقا دون أن ينتشر التعليم الدينى فى المدارس الخاصة، وإن كانت لاتعد كثيراً بالمساعدات المادية خشية من احتكاك السلطات الدينية المتعددة مع الدولة إن بدا أنها تؤثر مثلاً بقليل أو بكثير بعض الكنائس دون بعض، على نحو ماعليه الوضع فى الولايات المتحدة الأمريكية، فالدولة الإتحادية تعترف بثلاث سلطات دينية: سلطة الكنيسة الإنجيلية، وسلطة الكنيسة الكاثوليكية، وسلطة الحاخامية اليهودية".

ويضيف[2]:

" ولم تزل تدخل نفسها ضد مايظن أنه يمس شئون الكنيسة من

---

(١) انظر : العلمانية والإسلام ص ٤٤ ومابعدها بتصرف.

(٢) المصدر السابق .

قريب أو بعيد : ففى سنة (١٩٥٨) كتبت أنّا ثلاث مقالات فى "مجلة الأزهر" عن المستشرقين والمبشرين، اعتبرت بعض دوائر الفاتيكان أنها تنطوى على بعض الإحراج لشئون التبشير الكاثوليكى على وجه الخصوص، فكان أول احتجاج وصل إلى وزارة الخارجية المصرية هو إحتجاج سفارة الولايات المتحدة الأمريكية ، تلاه إحتجاجات أخرى عديدة من السفارات الغربية التى تمثل في بلادها أكثرية بروتستانتية أو كاثوليكية على السواء.

كذلك لم تزل الدولة العلمانية الغربية ترعى المسيحية كدين والكنيسة كسلطة دينية، بالحرص على جباية الضرائب الخاصة بالكنيسة عن طريق أجهزتها الإدارية، وعلى حماية أملاكها، وتمكينها من مباشرة رسالتها.

وهدف الدولة العلمانية فى فصلها الكنيسة عن السلطة الدينية هى إذن اتقاء الاصطدام معها... وليس محاولة تخريب قيمها الدينية ولا محاولة الاعتراض على ماتراه السلطة الدينية من واجبات وطقوس وشعائر، وحتى رجال الدولة أنفسهم فى ممارستهم السياسة العامة للمجتمع يخضعون فى ظروف معينة لملائمة أنفسهم مع تقاليد الكنيسة وعلى سبيل المثال: دوق أوف وندرسور، انتونى ايدن، فى انجلترا كلاهما اضطر إلي ترك الوظيفة العامة أو إلي عدم السعى إليها، لأن سلوك كل منهما فى حياته الزوجية لايتفق مع ماتراه الكنيسة من تقاليد فى الزواج.

والجنرال (ديجـول فى فرنسـا) أقال وزير التـربية الإشتـراكى فى وزارته الأولى- بعد أن عاد للحكم فى المرة الثانية- بـسبب عدم موافقة الوزير على مساعدة المدارس الدينيـة فى فرنسا، من مدارس الجزويت، والفرير، بمـبلغ ستين مليونـا من الجنيهات الاسـترلينيـة في ميزانـية سنة (١٩٦٣) من غير حق التفتيش عليها من قبل وزارة التربية.

وهكذا نجـد أن الدين يؤثر فى السـياسـة، وأن تدخل رجاله يقـيل الوزراء ويعـينهم، وأن السـفـارات تتـدخل فى شئـون الدول الأخـرى لصالح مدرسة دينيـة هنا أو هناك، وهى المدارس التى تغدق عليها تلك الدول ، الأموال والهبات(١) .

لقد أصبحت مدينة فاتيكان الـتى تعد من أصغر مدن العالم، دولة مسـتقلة ذات سـيادة خاصـة، لها سفـراء فى جمـيع بلاد العالم تقـريبا يتقدمون سفراء الدول الأوروبية الأخـرى، أما البابا نفسه، فهو فى نظر الأوروبين والأمريكيين صاحب القداسة والمعـجزات. لقد كتبت مجلة الحوادث فى ٢٧/ ١٠/ ١٩٧٩ على لسـان أحد الباحـثين الباكسـتانيين يدعى أحمـد الماوردى وهو علمانى، مشاهداته لزيارة البـابا لأمريكا إذ يقول(٢) :

فى الأستـاد(يانكى ستاديوم) ظل الثـمانون ألف أمريكى يهتـفون

(١) انظر: العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق ص ٤٤ ومابعدها.

(٢) انظر: يحيي هاشم حسن: حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب ص ٤١-٥١ باختصار وتصرف، دار الصابونى للنشر ٨٩- القاهرة.

ويهللون ويصلون أكثر من سبع ساعات فى انتظار موكب البابا... حتى إذا وصل ، جن جنونهم واشرأبت الأعناق، وحسدوا الذين تقع مقاعدهم في الصف الأمامى، لأنهم يستطيعون لمس طرف مرافقيه، وكبار الكرادلة والأساقفة في ثيابهم التقليدية، ولكل حزام من لون خاص وفقا لمرتبته فى البلاط الكنسى... ينحنون أمام البابا، ويخلعون له تاجه، ويلبسونه الطاقية الصغيرة التى يلبسها اليهود، إلا أنها بيضاء مرة وحمراء أخرى، وأرجوانية معظم الوقت... ثم يلبسونه ثيابا خاصة شبيهة بلبس الأطباء فى غرفة العمليات... وعندما عرق الأب "دونالد هاتسو" مسح البابا جبينه... وتدافع الصحفيون والمصورون يسألون الرجل عن شعوره بعد هذه اللفتة وماذا قال له البابا، فقال هاتسون: إنه ذهل وتقمصته حالة من الوجد عندما لمست يد البابا جبينه، فنسى كل ماجرى بينه وبين البابا، من حديث.

ويتقدم كاردينال أو أسقف نيويورك للبابا بالمبخرة وكنت أظنها اختفت من الغرب، وبقيت عندنا في حلقات الذكر المتخلفة ويضع البابا البخور بيده، ويعطى الإذن بتبخير المذبح، لطرد الشياطين والأرواح الشريرة التى قد تكون مختلفة داخل المذبح، مع أن رجال المباحث الجنائية والمخابرات العامة وحرس الفاتيكان الخاص، قاموا بفحص المذبح بالأجهزة الاليكترونية والكلاب المدربة على اكتشاف القنابل والمتفجرات، ولكنها لاتستطيع اكتشاف الشياطين.

" بعد التبخير... بدأت الصلاة ، وقد دهشت من عدد الذين يحفظون الصلاة بين شباب نيويورك، ولو أجرى إمتحان فى سورة الفاتحة بين شباب كراتشى أو القاهرة أو دمشق لسقطت الأغلبية الساحقة". وتتابع المراسم ويأتون بالخبز والنبيذ للمذبح.

" لا أصدق ما أراه كأنى أعيش فيلما عن القرن الثانى عشر كنت أظن أننى أعيش فى قلب الحضارة العلمانية والمادية وفق معقل الديمقراطية، حتى رأيتهم ينادون البابا بصاحب القداسة، قد ثرنا على الإسلام، مع أنه لا قداسة لأى فرد فى الإسلام، حتى محمد الذي يعتقد المسلمون أنه نبى نزل عليه ملَك من السماء، لايوصف بالقدسية بل يقول المسلمون:"العصمة لله وحده" وليس هناك زعيم إسلامى أو رجل دين يدعى معجزة واحدة.

وتقول مجلة التايم في تعليقها على زيارة البابا جون بول الثانى لأمريكا عام١٩٧٩:

(خلال عام واحد قفز الحبر الأعظم إلي بؤرة الضوء كزعيم متألق يتعطش العالم إليه، زعيم قادر على تحريك الناس ليحققوا إنجازات أكبر من تفكيرهم، إنه رجل كل العصور وكل المعتقدات).

وقالت نيوزويك :(إن الطريقة التى يثير بها الحماسة توحى وكأن الروح القدس قد ظهرت فى أمريكا).

وأعلن المذيع في التليفزيون الأمريكى:(إن من معجزات البابا أنه

فى سنة واحدة أسقط عيدي أمين وأحل حاكما مسيحيا محله وأسقط بوكاسا الحاكم الأفريقى المسيحى الذى تجرأ واعتنق الإسلام... أسقطته قوات أكبر دولة كاثوليكية فى العالم).

ويقول بعض المعلقين الصحفيين عن هذه الزيارة:

(رحلة البابا عمل سياسى كامل،رغم أن كارتر بوصفه رئيس أكبر دولة مسيحية- آنذاك- كانت إلى سنوات قريبة معادية للكاثوليك، حتى أنها إحدى الدول القليلة فى العالم التى لاتعترف بالفاتيكان كدولة رغم أنه اضطر إلي ضمأنة الكاثوليك بقوله :"لقد اتفقت مع البابا علي أن الكنيسة لايجوز أن تتورط في السياسة وأن ترتبط بنظام سياسى" إلا أن البابا لم يترك قضية سياسية إلا وتحدث فيها من المشكلة اللبنانية إلي التعايش إلي الطغيان فى أمريكا اللاتينية والحوار بين الشمال والجنوب مروراً بمستقبل القدس وكامب ديفيد).

العود على البدء:

وأخيرا نستخلص من كل ماذكرنا من آراء مفكرى الغرب وساستهم حول المشاكل التى يعانى منها المجتمع الغربى، وبالتالى المناداة بالعودة إلي الأخلاق والدين أن هذا المجتمع يعيش فى حالة فراغ روحى لايمكن أن يملأه إلا الدين، والنصرانية لاتملك مؤهلات ملء هذا الفراغ لما ذكرنا فى القسم الأول من هذا البحث وبالتالى أيضا فإن العودة إليه سوف تزيد المشاكل خطورة كما هو حادث فعلاً وبالتالى

فإن المجال مفتوح والفرصة مهيئة للدعاة المسلمين ولكنهم هل يستطيعون أن يملأوا هذا الفراغ؟

ولا شك أن هناك عقبات فى الطريق للقيام بهذا الدور على الوجه الكامل، مع وجود محاولات لا بأس بها في هذا المجال ولعله من أهم تلك العقبات الفجوة الحضارية الموجودة بين العالم الإسلامى والغرب وهى فجوة هائلة جداً والأدهى من ذلك أنها فى ازدياد مستمر بنسب مخيفة تنذر بالكارثة.

ومما يدل على هوة هذه الفجوة مانشرته بعض المجلات الثقافية الجادة [(١)] من خلال إحصائيات يونسكو أن الفرد اليابانى يقرأ ١٤٤ ضعفاً من الفرد العربى، وأن نسبة الأمية فى العالم العربى ٣٨ ٪ من السكان [(٢)] وهى (١٠٥) مليونا من البشر حسب إحصائية عام ١٩٩٦.

وهناك بحث للدكتور نادر فرجانى خبير التنمية البشرية [(٣)] يقدم إحصائيات أكثر إثارة وكارثة في مجال المقارنة بين العرب وإسرائيل فالعرب حسب البحث يعيشون على رقعة من الأرض تعادل أكثر من ستمائة ضعف مساحة إسرائيل إلا أن الناتج المحلى الإجمالى للفرد في إسرائيل يفوق نظيره في البلدان العربية مجتمعة وتزداد الشقة بينهما

---

(١) انظر مجلة العربى : العدد ٤٧٥ يونيو ١٩٩٨.

(٢) وهى ٤٥٪ حسب بعض المصادر كما سيأتى.

(٣) نشر بعض مافيه الأستاذ فهمى هويدى في الوطن: الثلاثاء ٢٨ يوليو ١٩٩٨.

عبر الزمن وبينما لاتمثل إسرائيل أكثر من ٢٪ من سكان منطقة الشرق الأوسط إلا أن صادراتها في عام ١٩٩٥ بلغت ١٨٪ من مجمل صادرات المنطقة. والأمية في العالم العربى حسب البحث المذكور - ٤٥٪ ولا تزيد في إسرائيل عن ٥٪.

" وأننا إذا أدخلنا نسبة السكان فى الإعتبار فسوف نكتشف عند المقارنة أن إسرائيل تتفوق على العرب بمعدل عشر مرات في الأفراد العلميين وأكثر من ثلاثين مرة في الإنفاق علي البحث والتطوير وأكثر من خمسين مرة في وصلات "الإنترنت" وأكثر من سبعين مرة في النشر العلمى وقرابة ألف مرة فى براءات الإختراع (١).

ويستطيع المرء أن يدرك الفجوة الحضارية الهائلة بين العرب وغيرهم والتى تزداد نسبته بمرور الزمن، وقد اخترنا إسرائيل هنا لأمرين: أحدهما أنها بوابة الغرب والحضارة الغربية فى الشرق الأوسط من حيث تركيبة السكان والنظام القائم... كما أنها من حيث موقفها من التقدم دولة بين الدول النامية والدول المتقدمة وثانيهما وهو الأهم أن ماسمى بالصراع العربى الإسرائيلي هو فى ذاته من المعوقات في طريق الدعوة الإسلامية، لأنه يستنزف ولايزال الطاقات والجهود والأموال والثروة البشرية طوال خمسين عاماً دون أن يكسب المسلمون والعرب من وراء ذلك شيئاً إلا الخسارة فى الأرض والاقتصاد... كما

---

(١) انظر: نفس المقال في الجريدة نفسها عدد ٤ أغسطس ١٩٩٨.

أن اللوبي الصهيوني في الدول الغربية ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية من أهم أسباب وجود صورة مشوهة عن الإسلام في تلك البلاد.

ومع إيماننا بأن هذا العائق، عائق الفجوة الحضارية بين الإسلام والمسلمين وبين الغرب لن يحول دون انتشار الإسلام إن شاء الله تعالى فإن العمل على تضييقه- إن لم يمكن زواله- يساعد كثيراً في إيصال صوت الإسلام ودعوته إلي الغرب، أما أنه لايحول، فذلك لأن الإسلام بمبادئه التي توافق الفطرة وتؤهل أصحابها إلي التقدم الروحي والمادي قد يعوض ضعف المسلمين وتجذب المنصفين من مفكري ومثقفي الغرب، ورب مبلغ أوعى من سامع.

الخلاصة والنتائج:

لقد فصل الغرب الدين عن الحياة في ظروف ثقافية واجتماعية وسياسية خاصة معروفة، إلا أن ذلك أدى إلي مشاكل أخلاقية تربوية كما أن تلك الظروف الخاصة انتهت، لهذا يدعو اليوم إلي العودة إلي الدين ولكن أى دين يرجع إليه؟ فالديانة النصرانية فى تناقض تام مع الحضارة والتقدم، لهذا لاسبيل أمامه سوى البحث عن ديانة جديدة، لاتتناقض مع قيم الحضارة، وهذا هو سر إسلام كثير من مفكريه وعلمائه، فالإسلام إذا مانجحنا فى تقديمه فى صورة جيدة، مرشح للإنتشار فى الغرب.

ملحق البحث

نقد التيارات المادية

نقد المدرسة الوضعية:

فيما يلى ننقد التيارات المادية الناشئة عن طغيان الكنيسة ومنهجنا في هذا النقد أن نبدأ بأحسن ما في التيار من الإيجابيات إن صح تسميتها بالإيجابيات، ثم نتطرق إلي الإسلام بإيجاز لنرى كيف عالج هذه الجوانب في منهجه أفضل ماتكون المعالجة، ثم ندرس السلبيات فى التيار، واحدة تلو الأخرى فننقدها.

ولنبدأ بالمدرسة الوضعية التى أثرت فى معظم التيارات المادية بطريقة أو بأخرى.

أحسن مافي الفلسفة أو المدرسة الوضعية دعوتها إلي المنهج التجريبى وعدم القفز على الوقائع المحسوسة أو الاكتفاء بإرجاع الأمور والحوادث إلي الآلهة أو أمور غير مرئية، لأن ذلك يعنى - ضمن ما يعنى - سد باب العلم والمعرفة، ويحول دون التفكير العلمى الجاد الذي يعد أساس حل مشاكل الحياة التى تعترض طريق الإنسان، وبالتالى يحول دون التقدم والحضارة، ويفتح الباب على مصراعيه أمام الدجل والخرافة، ويجعل الإنسان- فرداً ومجتمعاً- يضع كل أخطائه على شماعة الإيمان بالدين دون أن يدرس أسبابها محاولاً معالجتها وعدم تكرارها مما سيسىء- على المدى البعيد- إلى الدين نفسه.

والإسلام يدعو إلي النظر والتفكير فى الكون والحياة ، فليس فيه - كما هو الحال فى النصرانية - آمن أو لا ثم تسأل، كما درسنا سابقاً

وإنما هو دعوة إلي التفكير الذى يوجبه على أتباعه.

وقد منع الإسلام التقليد الأعمى، ولهذا نشأ المنهج التجريبى أول مانشأ في ظل الحضارة الإسلامية وكما سيأتى فإن المسلمين نجحوا بفضل تلك الدعوة فى اختراعات واكتشافات عديدة استفاد منها الأوروبيون أنفسهم ، إلا أن للمدرسة الوضعية سلبيات كثيرة نوجزها فيما يلى :

١- الأطوار الثلاثة متزامنة وليست متعاقبة:

يقول الدكتور عبدالله دراز[١] فى نقد الوضعية :

"نقطة الخطأ البارزة فى هذا المذهب التطورى هى أن أنصاره جعلوا منه قانونا يستوعب التاريخ كله فى شوط واحد، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل، ونفضت أو كادت تنفض يدها منهما إلي غير رجعة فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلي طفولته وشبابه.

ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية، كلما ختمت شوطاً رجعت عوداً على بدء لكان الخطأ فى هذه النظرية أقل شناعة، ولكنها بعد ذلك تظل دعوى غير مسلمة".

وهذا الذى يأخذه الدكتور"دراز على الفلسفة الوضعية ومؤسسها هو موضع المؤاخذة عند كثير من المفكرين، فالفيلسوف البريطانى

---

(١) الدين : ص ٨٤-٨٥.

الشهير المعاصر برتراند راسل يقارن بين أوجست كونت ومفكر آخر هو (فيكو)[1] فيقول كان فيكو مفكراً أكثر واقعية فاعترف بأن المجتمع يمكن أن ينتكس من فترات رقى وإنجاز حضارى إلي عهود بربرية تعود من جديد، كما حدث بالفعل في العصور المظلمة التى أعقبت تفكك العالم الرومانى".

ثم يقول[2] : وربما كان هذا ينطبق على عصرنا الحاضر أيضاً".

وصدق راسل في أن نظرية الأطوار الثلاثة بعيدة عن الواقعية ولكنه لم يصب الحقيقة في اعتبار العودة إلي التفكير اللاهوتى أو الميتافيزيقى انتكاسه.

أما صدقه " في الأول فإننا نرى في القرن العشرين وفى قلب الحضارة الأوروبية - إلى جانب البحوث المادية المتشعبة- دراسات روحية واسعة لكنها تقوم بها جماعات محترمة من كبار علماء الطب والفلسفة والطبيعة على منهاج علمى دقيق وبأسلوب برهانى يعتمد على التحليل والنقد الصارم[3] وهذا يثبت - كما قلنا- بعد رأى أوجست كونت عن الواقعية كما ينفي أيضا صفة الانتكاسة التى يتحدث عنها راسل" بل إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة في نفس كل فرد وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً في إقامة الحياة

---

(١) انظر راسل : حكمة الغرب ٢/ ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر : د. عبد الله دراز : الدين : ص ٨٥-٨٦.

الإنسانية على وجهها، ولكل وحدة منها مجال يوائمها. ففي الوقت الذى نفسر فيه الحوادث العادية بأسبابها المباشرة - خارجية أو داخلية- فنقول : هلك فلان بضربة سيف أو بالشيخوخة أو المرض، لايزال كل واحد منا يفسر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر، أو بسبب غيبى مجهول "[1].

وعلى هذا فالمراحل التى يتحدث عنها أوجست كونت، متزامنة متصلة فى نفس الفرد وفى حياة المجتمعات وأقرب مثال في ذلك هو ما حدث فى الحضارة الإسلامية التى لم تجد تناقضا بين الأخذ بالمنهج التجريبى وبين الدين، ذلك بأن النظر فى الكون يؤدي إلي مزيد من الإيمان بالله وتدعيمه فى النفس البشرية.

يقول أحد العلماءالغربيين هو بر يفولت[2] "إن ما ندعوه العلم الحديث ظهر فى أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لمنهج التجريب والملاحظة والقياس ، ولتطور للعلوم والرياضيات إلي صورة لم يعرفها اليونان.

وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم

---

(١) ...

(٢) Briffault : Maling of humanity P.651

نقلا عن كتاب : المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية للدكتور: سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٢٨ بتصرف.

الأوروبى" حتى يذهب الأستاذ ديتركى Dietrici إلى تأكيد أن العرب عرفوا قوانين نيوتن عن الجاذبية، فمحمد بن عمر الرازى يقول : إذا رمينا المدرة إلي فوق فإنها ترجع إلى أسفل، فعلمنا أن فيها قوة تقتضى الحصول فى السفل حتى أنا لما رميناها إلي فوق أعادتها تلك القوة إلى أسفل.

ويقول ثابت بن قرة : إن المدرة تعود إلى أسفل لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض، أعنى البرودة والكثافة والشيء ينجذب إلى أعظم منه، كذلك ذكر الخازن البصرى أن قوة التثاقل تتجه دائما إلى مركز الأرض (١).

وأشهر علماء العرب فى الطبيعة هو الحسن بن الهيثم (٩٦٥-١٠٢٠) الذي اشتغل بالعدسات والبصريات وقد اشتهر في الغرب باسم هازن أى الحسن وله من المؤلفات والكتب مايربو على المائتين، وقد أثبت الحسن أو الهازن في رسائله وكتبه بطلان كثير من آراء بطليموس "حتى استقر لدى الباحثين فى أوروبا" أنه من أعظم علماء البصريات فى كل العصور."(٢)

"وأجرى الخازن البصرى ٩٦٥-١٠٣٨ تجارب لايجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته وأوضح أن المادة يختلف وزنها فى الهواء

(١) المصدر السابق ١٢٩-١٣٠، وانظر فى ذلك: رجاء الجارودى : الإسلام دين المستقبل ص١٠٠ ومابعدها ترجمة عبد المجيد بارودى.

(٢) انظر : بروفيسور شاخت وآخرين : تراث الإسلام، ٣/ ٢٠٧.

الكثيف عنه فى الهواء الخفيف الأقل كثافة لاختلاف الضغط، وله كتاب في علم الطبيعة باسم "ميزان الحكمة" يحتوى - ضمن مايحتوى على بحث في الضغط الجوى يتضمن القانون الذى ينص على أن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل إلى أعلى، على أى جسم مغمور فيه وبالتالى فإن وزن الجسم فى الهواء يقل عن وزنه الحقيقى فى الفراغ (١).

"وعاصرالخازن البصرى ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) صاحب كتاب الشفاء الموسوعة العلمية الضخمة في ١٨ مجلداً فى العلوم الرياضية والطبيعية والدينية وغيرها من العلوم.

" أما فى مجال الفلك فقد قالوا بكروية الأرض ودورانها حول محورها واتخذوا من ذلك أساساً للتوصل إلى عدة نظريات، منها تقدير محيط الأرض، واستطاعوا تعيين انحراف سمت الشمس تعييناً دقيقاً حددوه بثلاث وعشرين درجة وثلاث وثلاثين دقيقة واثنتين وخمسين ثانية، وهو تقريباً الرقم نفسه الذى توصل إليه العلماء المحدثون (٢).

ومما يدل على دقة الأبحاث الفلكية لدى العرب والمسلمين أن تقويم عمر الخيام المعروف بالتقويم الجلالي نسبة إلي السلطان جلال

---

(١) انظر : د. عاشور: المدينة الإسلامية ، ص ١٣٠ ومابعدها.

(٢) المصدر السابق : ١١٥و١١٦ بتصرف واختصار.

الدين ملكشاه يؤدى إلى فرق يوم كل خمسة آلاف سنة، بينما يؤدى التقويم الأفرنجي المستعمل في معظم أنحاء العالم اليوم إلي فرق يوم كل ٣٣٣٠ سنة (١).

واستعمل العرب كثيرا من الآلات الفلكية التى اخترعوها لأول مرة ومن أهمها الأسطرلاب الذى يوجد منه نماذج جميلة فى مختلف متاحف أوروبا، وظلت عظيمة الأهمية والقيمة للملاحين حتى حلت محله مخترعات حديثة في القرن السابع عشر.

وهكذا جعل العرب والمسلمون من الفلك علماً استقرائياً عملياً يقوم على أساس المشاهدة والبحث لا على أساس الافتراضات النظرية كما كان الحال عند اليونانيين (٢).

وهذه الأمثلة تنقض الوضعية من جهتين :

أولاهما: أن ماتسميه الوضعية بالمرحلة العلمية ليس من سمات العصر الحديث فقد سبقه العصر الإسلامى فى ذلك.

وثانيهما: أن المرحلتين : الإيمان بالله وإرجاع الأمور والحوادث إلي الخالق تعالى، والإهتمام بالعلم والمنهج التجريبى مع الإكتشافات والإختراعات العلمية، سارتا جنباً إلى جنب في عصر واحد إذ كان المسلمون يهتمون بالقضايا الدينية مطورين الأسس العامة لعلم الكلام

---

(١) انظر فى ذلك أيضا: تراث الإسلام : بروفيسور شاخت وآخرين ٣/ ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق : وانظر : روجيه الجارودى : الإسلام دين المستقبل ص١٠٠ ومابعدها.

الإسلامى أو مايسمى فى المصطلح الغربى بعلم اللاهوت ويخترعون فى الوقت نفسه فى المجالات المادية والتجريبية، فأين الإنفصال بين المراحل والأطورا الذي يتحدث عنه أوجست كونت؟

وهذا الذى كان يحدث في العصر الإسلامى يمثل واقع الحياة وواقع الإنسان، فإن فى الحياة أموراً وأحداثاً لايملك الإنسان- بالإمكانات المتاحة لديه- أن يدرسها بالمنهج التجريبى دائماً بل يحتار فيها ويضطر إلى إرجاعها إلي الله تعالى إلا أنه بجانب تلك الأمور والأحداث هناك أمور أخرى يمكن للإنسان أن يدرسها ويخضعها للتجربة العلمية، وفى النهاية يكون الله رب العالمين هو مسبب الأسباب كلها وخالق الأمور والأحداث جميعاً.

وهكذا تسير المراحل التى تظنها الوضعية منفصلة متناقضة لا تأتى لاحقتها إلا إذا انتهت سابقتها، متزامنة، جنباً إلى جنب، في مجتمع واحد وعصر تاريخى واحد تكمل بعضها بعضاً، بل قد تكون متزامنة لدى شخص واحد.

وما يحدث في القرن العشرين أكبر برهان على ذلك، فانظر كيف ترتفع الصيحات الدينية عالية كل يوم وكيف يطالب العلماء والمفكرون والفلاسفة بالرجوع إلى الدين الذى يعدونه بلسماً شافياً على جروح الإنسانية المتألمة من تطبيقات المنهج المخادى كما أوضحنا ذلك من قبل. فلو صدقت الوضعية بأطوارها الثلاثة لكانت الإنسانية قد كفت نهائياً-

لاسيما بعد مضى أكثر من قرن ونصف على واضعها- عن الدين والتدين.

٢- عجز العلم عن تفسير الأشياء والظواهر:

وعلى الرغم من التقدم العلمى الهائل الذى ناله الإنسان. فإنه مازال عاجزاً عن تفسير كثير من الأمور ولايجد بداً من إرجاعها إلى قوة عليا.

" فمثلاً يرى أوجست كونت مؤسس الفلسفة الوضعية- كما أشرنا إلي ذلك آنفاً- أن العلم قادر على تفسير الأحداث والظواهر اليوم، كان الإنسان القديم يرى ببساطة أن الإله هو الذى يقف وراء كل مايحدث على الأرض وخارجها، ولكن الوسائل العلمية قد كشفت لنا عن السبب الكامن وراء كل حادث يقع، وبالتالى لم يعد الإنسان بحاجة إلى الإله فى عصر العلم.

ولنفهم ذلك بمثال:

إن الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية، ويخرج منها بعد ماتنكسر مضغة لحم. لقد كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه، ولكنا شاهدنا اليوم- بالمنظار- أنه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله فى تكسير قشرة البيضة لينطلق خارجاً منها ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.

هذه المشاهدة كما يزعم المعارضون أبطلت الفكرة القديمة القائلة بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة إذ قد رأينا يقينا أن قانون "الواحد والعشرين يوما" يحدث هذه العملية. والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث، ولاتكشف عن سببه الحقيقى، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن (تكسر البيضة) بل عن (كيف يظهر القرن)؟ إن السبب الحقيقى سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التى جاءت بهذا القرن، العلة التى كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير(وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه"مشاهدة للواقع على نطاق أوسع" ولكنه ليس تفسيراً له .[1]"

" وقانون السببية مثلاً في العلم الحديث يفسر فقط كيف تحدث الأشياء على النحو الذى تحدث به، ولكنه لايفسر لماذا كانت الأشياء على هذا النحو فهو على سبيل المثال" يفسر كيف يتحول الماء إلى البخار بالتسخين. ولكنه لايفسر لماذا كان التسخين يحول الماء إلى البخار؟ فلولا أن الله خلق الماء على النحو الذى يجعل التسخين يتحول إلى بخار، ماتحول !

بعبارة أخرى : إن العلم بخواص المادة يفسر لنا الظواهر التى تحدث في عالم المادة، ولكنه لايفسر لنا لماذا كانت المادة بهذه الصورة

---

(١) وحيد الدين خان : الدين والعلم ٦٦-٦٧.

وبهذه الخواص. ذلك أن هذه الصورة ليست هى الصورة الوحيدة الممكنة عقلاً... بل هى إحدى الصور الممكنة، وقد كان يمكن - لو أراد الله- أن تكون على صورة أخرى وذات خواص مختلفة. فالذى جعلها على هذه الصورة، وأعطاها هذه الخواص هو مشيئة الله وحدها. وهذا هو السبب الحقيقى الذى لايغنى عنه معرفة السبب الظاهر"[1] وإلى ذلك تشير سورة الواقعة:

﴿أفرأيتم ماتمنون؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون؟! أفرأيتم ماتحرثون؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون: إنا لمغرمون، بل نحن محرومون! أفرأيتم الماء الذى تشربون؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون؟ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون؟﴾.[2]

يقول ويل ديورانت[3]:

" فكل مانستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوى جهلنا! وكلما كثر علمنا قلت معرفتنا، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن

---

(١) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ص ٦٣٢.

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٥٨-٧٠.

(٣) مناهج الفلسفة : نقلا عن محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ٦٣١-٦٣٢.

غوامض جديدة، وشكوك جديدة، "الجزئ" يتكشف عن "الذرة" والذرة عن الالكترون (الكهرب) والالكترون عن الكوانتوم Quantum (الكويمية) ويتحدى الكوانتوم سائر مقولاتنا" Categories ، وقوانينا وينطوى عليهما. والتعليم تجديد في العقائد وتقدم فى الشك، وآلاتنا كما ترى مرتبطة بالمادة وحواسنا بالعقل...

وفى خلال هذا الضباب يجب علينا نحن "الزغب" على الماء، أن نفهم البحر!".

وعن تقلب "العلم "يقول (١):

"إلى أى نجم بعيد ذهبت نظريتنا السديمية المشهورة؟ هل يؤيدها علم الفلك الحديث أو يسخر من وجهها المغبر؟

"وأين ذهبت قوانين نيوتن العظيم حين قلب أينشتين وميكوفسكى وغيرهما الكون رأسا على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم؟

" كما قد اتضح خطأ نظرية نيوتن- لأول مرة- حين حاول العلماء شرح ظاهرة (الضوء) بالمصطلحات المادية. وهذه الجهود أوصلتهم إلى "عقيدة" الأثير Ether الذى كان عنصراً مجهولا وغير قابل لشرح خصائصه. وقد استمر العلماء يؤمنون بهذه العقيدة لعدة

---

(١) مناهج الفلسفة : نقلا عن محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ٦٣١-٦٣٢.

أجيال. وقد قدمت الرياضيات مالا يحصى من المعجزات لتكوين تفسير مادى لظاهرة (الضوء). ولكن بعد نشر تجارب ماكسويل Maxwell أصبح (الضوء) مشكلة عويصة، لايعرف العلماء كيف يفسرون معمياتها. وكانت تجارب ماكسويل تبين أن (الضوء) ليس كائنا مادياً، وإنما هو ظاهرة برقية - مغناطيسية Electromagnetic Phenomenon وقد استمرت هوة الفراغ فى الاتساع بين النظريتين حتى جاء اليوم الذى انكشف فيه على العلماء أنه لاشيء فى نظريات (نيوتن) مايمكن اعتباره (مقدسا)! وبعد جهود طويلة استهدفت إثبات أن الكهرباء عنصر ميكانيكى (مادى)، وبعد تذبذب طويل اعترفوا بأن الكهرباء من "العناصر غير القابلة للتحويل" Irreducible Elements. إن هذا الاعتراف يبدو بسيطاً، ولكنه في حقيقته كان حكما تاريخياً خطيراً ذا مغزى غير عادى وآثار بعيدة المدى.(١)

"نحن نعرف حقيقة كل شيء!"... هكذا كان اعتقادنا ونحن نشاهد الأشياء بمنظار نظرية نيوتن، لقد كنا نؤمن بأن "المادة" هى كمية الجسم ومقداره. وكنا نظن أن الحركة مصدر الطاقة، وما إلى ذلك. وكان اعتقادنا أننا نعرف بالتأكيد "الطبيعة" التى نتحدث عنها. ولكن اتضح لنا بعد دراسة ظاهرة "الكهرباء" أنه لايمكن التوصل إلي طبيعة هذه الظاهرة، لدرجة أن جميع المصطلحات المعروفة قد أخفقت في

---

(١) وحيد الدين خان : الدين والعلم ص ٧٠-٧١.

تفسير هذه الظاهرة. وكل مانعرفه الآن عن "الكهرباء" هو أنها عنصر يؤثر فى آلات الوزن والقياس. وبهذا نستطيع أن نفهم خطورة هذا الاعتراف إنه يعنى أن علم "الطبيعة" قد اعترف بـ "وجود"Entity لانعرف عنه إلا هيكله الرياضى !!".(١)

وهكذا فإن معلوماتنا عن الكون والحياة مازالت قليلة، وأننا لا نستطيع أن نفسر كل شيء حسب العلم المادى على الرغم من تقدمه اليوم، وبالتالى تظل هناك أمور وأشياء بحاجة إلى إرجاعها إلي قوة عليا.

وما أوردناه من النقد على الفلسفة الوضعية يرد كذلك أو يرد معظمه على الوضعية المنطقية أيضا، وذلك لاشتراكهما فى اعتبار الخبرة الحسية والمنهج التجريبى وحده معياراً للصدق والصواب.

والبحث عن الدين أو قل التدين فى الإنسان أمر فطرى فطر عليه البشر كما سيأتى، والبحث عن الإجابة عن الأسئلة الناشئة عنه غريزة لايهدأ له بال حتى يجيب عنها، فكيف تكون الكلمات التى تعبر عنها جوفاء هراء لاتستحق أن تكون أو تسمى مجرد خطأ؟

وكيف نمنع الإنسان عن البحث والتفكير فى مصيره الأبدى ؟ وهل يمكن حقاً أن نمنعه عنه وهو مفطور على البحث عن غده القريب

---

(١) وحيد الدين خان : الدين والعلم ص ٧٠-٧١.

فما بالك بالغد البعيد، وعلى المصالح الجزئية الفرعية فما بالك بالمصالح الكلية العامة الخالدة؟

وماذا نقول عن جهد الإنسان الدائب منذ نشأته حتى اليوم بل حتى يرث الله الأرض وما عليها حول البحث عن مصيره؟ وهل كل الفلسفات والمذاهب الفكرية التى قامت، والعقول العظيمة التى تركت لنا آثاراً إنسانية خالدة فى هذا الموضوع هراء وعبث ماعدا الفلسفة الوضعية المنطقية؟

نقد الماركسية:

١- لعل أهم مافي الماركسية من الإيجابيات- إن كانت هناك إيجابيات- هو : الاهتمام بحقوق العمال والفلاحين إلى درجة الدعوة إلى حكومة العمال.

والإسلام دين العدل، والعدل اسم من أسمائه سبحانه وتعالى ومن هنا فإنه أى الإسلام يكره الظلم بجميع صوره وأنواعه سواء أكان ذلك ظلم العمال- عن طريق حكومة حزبهم- أو ظلم أصحاب العمل والمصانع في الرأسمالية.

ويحذر الرسول ﷺ من عدم منح الأجير أجره إذ يقول :ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه

ولم يعطه أجره" [1].

ولا يأمر الإسلام الإنسان بمنح الأجير أجره، وأن يفعل ذلك بأسرع مايمكن أو كما قال الرسول ﷺ قبل أن يجف عرقه، نعم لايأمر الإسلام بذلك فقط وإنما يأمر أن يفى أجره بحاجياته حتى يستطيع أن يعيش فى مستوى اجتماعى كريم قد يكون مستوى صاحب العمل نفسه، وهو إذ ينبغى بل يجب أن يتقاضى أجراً مجزياً لايجوز أن يكلف بما لايطيق، يقول الرسول ﷺ "إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم مايغلبهم، فإن كلفتوهم فأعينوهم" [2].

فأين هذه العناية الكريمة بالعامل مما رآه والذى كان سائدا في عصر ماركس فى انجلترا الرأسمالية.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يطبقون تعاليم الرسول ﷺ بحذافيرها إلى درجة لم يكن المرء يفرق بين السيد وخادمه في المظهر والملبس والمأكل والمشرب، أيهما خادم وأيهما مخدوم؟

وكانت هذه المساواة المادية يصحبها شعور عميق في المجتمع الإسلامى بالمساواة بين الغنى والفقير في الكرامة الإنسانية مما كان له أثر عميق في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، فالإسلام ساوى بين

---

(١) رواه ابن ماجة ٢٤٤٣.

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان -٤٠.

الجميع، والتفاضل بينهم فى التقوى:"إن أكرمكم عند الله أتقاكم" فقد يكون الفقير عند الله أحسن من الغنى وقد يكون العكس، لابحسب المال والجاه وإنما بحسب قرب كل واحد منهم إلى الله رب العالمين.

وقد جعل الإسلام للفقير نصيبا فى مال الغنى يجب أن يعطيه وإلا يؤخذ منه جبراً إن امتنع عن أدائه.

إلا أن الإسلام لم يطالب بنزع الملكية من يدى الغنى حتى يساوى بين أفراد المجتمع جميعاً لما سيأتى، ولم يجعل العلاقة بين الغنى والفقير والعامل وصاحب العمل علاقة صدام وصراع، وإنما استبدل بها علاقة التكافل والمؤاخاة والمحبة والتعاون.

نقد المادية الجدلية:

أ- تطور العلوم أثبتت بطلان النقيضين والصراع بينهما :

إذا كان التطور- تطور المادة وتطور الحياة ثم تطور المجتمعات الإنسانية- هو عماد الفلسفة الماركسية، فإننا نرد عليها بالمنطق نفسه، ونقول إن الحياة والعلوم والمعارف البشرية قد تطورت- ومن الطبيعى جدا أن تتطور- منذ أن وضع كارل ماركس وصديقه انجلز فلسفة الشيوعية في القرن التاسع عشر، حتى حدثت- لاسيما بعد انشطار الذرة- تغييرات جذرية شملت كل المجالات، لم يعد معها مفهوم المادة هو نفسه ماعرفه ماركس، ولم تعد العلاقة بين عناصرها هى علاقة التضاد والتصادم، وبالتالى انهارت أولى أسس الفلسفة الماركسية تماما

تحت ضربات التقدم العلمى الحديث[1] ، وهو "التطور من خلال الصراع بين النقيضين، إذ لم يعد هناك وجود للنقيضين ولا للصراع بينهما، وبالتالى لاتطور حسب النظرية الماركسية" وما الدليل على هذا التطور المزعوم ونحن نجد أن حبات الحنطة والشعير والأرز، وكذلك الخلية الحية التى تضرب بها الماركسية الأمثلة على شرح نظريتها، هى هى منذ أقدم الأزمان إلي اليوم، والخلية لم تتبدل ولم يتغير فى قانونها شىء ولم تتقدم بحد ذاتها.

" ثم إن هذه الخلايا لاتلبث أن يتقاصر نشاطها ثم يخبو، ثم يتوقف نهائياً ويتمزق ذلك التسبيح كله.. عندما تنهار درجة حرارة الجسم... فأين أثر من آثار النقلات الجدلية من أطروحة وطباق ونفى النفى في دنيا هذا النسيج الجسمى.

" فما قيمة الحديث عن الحركة الدائبة ضمن الخلايا وما يسمونه بوحدة الأضداد فيها إذا كانت الخلية بحد ذاتها، وبكل ماتوصف به من صفات باقية على حالها ضمن مدة من الزمن لاتتجاوزها ثم تتجه نحو الانطفاء والزوال "[2].

يقول الأستاذ أنور الجندى[3]:

"وليس أصدق على أن الزمن تجاوز الماركسية لأنها قامت على

---

(١) اقرأ في ذلك : راسل : حكمة الغرب : ٢/ ٢٣٢.

(٢) د. رمضان البوطى : نقض أوهام المادية الجدلية، ص ٨٠-٨٦ باختصار وتصرف.

(٣) هزيمة الشيوعية : ٦٤.

فروض العلم التى تغيـرت من بعد، أن أربعين عالما شيوعـياً فى الاتحاد السوفيتى اجتمعوا فى الستينات في شكل مجتمع علمى استهدف شرح الأسس الماركسـية وقد راجع النتائج- التى حـققها تفـتت الذرة. وقرر المجتمع أنه يجب ألا يعول كثـيرا على جدل المادة بعد أن تجاوزه العلم. وقد صدر كتاب تحت اسم (فـوند منثل اف ماركزم) ووصل إلى مصر وقد تم جمعه بعد توزيعـه وفي الطبعة الجديدة منه رفع الفصل الخاص بعدم التركيـز علي جدل المادة بعد أن اعتقد الماركـسيون القادة أن ذلك من شأنه أن يزعـزع العقيـدة في نفوس الأجـيال الجديدة ويضـربها فى الصميم.

ب- استحالة نشأة الحياة عن المادة:

وإذا كان التطور لايتم حسب النظرية الماركسية القائلة بتطور المادة حتى تنشأ عـنها الحياة أو المادة الحيـة، فقد ثبت أيضا بطلان نشـأة الحياة عن المادة، ومما يؤيد ذلك أن أدق ماقدمتـه الماركسية من برهان على هذه الدعوى، إلى الآن، هو أن الحياة تنشأ عن الحرارة والحرارة بدورها تنشأ عن الحركة أى فالحركة+ حرارة = حياة!.

ونحن نلجـأ إلي السبيل ذاته الذي تـهدينا إليه الماركـسيـة، لضبط سلامة مـعارفنا، ألا وهو سبيل : التطبـيق. فالمعرفة العـقلية، إنما تتم فى مجرى التطبيق مجرى النشاط العملى. نلجأ إلى سبيل التطبيق ومجرى النشاط العملى، لنتبين هل إن الحركة+ الحرارة= الحياة حقا؟

من ذا الذى جمع هاتين الظاهرتين إلى بعضهما (بجهد من تطبيقه الخاص) بهذه البساطة، أو بما شاء من التعقيد الكيميائى، فاستخرج منهما حقيقة الحياة؟

" فأين هو دليل مايسميه الماركسيون بالتطبيق والنشاط العملى على صدق هذا التصور الذى يقضى بكل بساطة بأن الحركة + الحرارة = الحياة؟

نحن لانشك في أن كلا من الحركة والحرارة ، من أبرز خصائص الحياة. ولكن من المفروغ منه، فى قواعد المنطق، أن خواص شىء ما، ليست تعبيراً عن الجوهر الذاتى الذى يقوم به. فالماء مثلاً في حالة الغليان يتصف بكل من الحركة والحرارة ، ولكن من الواضح أن جوهر الماء شىء آخر غير الحركة والحرارة. وهكذا فنحن نقر بأن الحياة لاتنشأ إلا حيث يتوافر كل من الحركة والحرارة غير أنهما خصيصتان من خصائصها الدالة عليها، أما جوهر الحياة ذاتها فشىء آخر، نبهت إلى وجودها كل من هاتين الخصيصتين.

الحركة، والحرارة، وكل مايعد من العناصر الأساسية للحياة كالأيدروجين والكربون والأزوت والأكسجين، والفسفور، والكبريت هذه كلها لايمكن أن يعبر عنها بأنها منشأة الحياة، أو أن الحياة تتكون من مجموعها أو من تآلفها بشكل معين. وإنما التعبير الصحيح أن الحياة- التى لاندرى جوهرها- تتخذ من هذه العناصر مظهرا لها. كالضياء

الساطع على صفحة جدار، لايمكن أن يكون الضياء هو صفحة الجدار ذاتها ولكنها مظهر له أو شرط لتجليه". (١)

لابد أن نعيد هنا إلى الذاكرة خبر المؤتمر الذي عقده ستة من أئمة علماء الحياة فى كل من الشرق والغرب، حول مائدة مستديرة في نيويورك عام ١٩٥٩، أملا في الوصول إلى فهم شيء عن أصل الحياة ونشأتها على ظهر الأرض، أو إلي معرفة مدى إمكان إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائى، وكان فيهم العالم الروسى (الكسندر إيفاتوفيتش أوبارين) أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفيتية.

لقد قرر المؤتمرون، فى نهاية بحوثهم - بالإجماع- أن أمر الحياة لايزال مجهولاً، ولا مطمع فى أن يصل إليه العلم يوماً ما، وأن هذا السر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة (٢).

جـ- عدم تبعية الروح للمادة:

فإذا صح أن الحياة لم تنشأ عن المادة فإن وجودها ليس تابعاً لوجود المادة، وما يدل على ذلك عدم قدرة الماركسية على الإجابة عن الأسئلة التى تثار حول العلاقة بين المادة والروح أو المادة والمعنى ومنها:

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر: د. رمضان البوطى ٩٨-٩٩.

افرض أن المادة أزلية قديمة فلماذا كانت الحياة حادثة؟ ولماذا لم تكن هى الأخرى قديمة أزلية مثل المادة؟

وإذا ما سلمنا بقدم المادة وحدوث الحياة من حقنا أن نتساءل ولماذا وجدت أو حدثت الحياة في وقت محدد أو فترة محددة من فترات تاريخ المادة دون غيرها من الفترات أو الأوقات؟

وكيف يمكن نشأة الحياة عن المادة والتجارب العلمية الأحدث كلها تعلن استحالة ذلك كما سيأتى؟

ولنفرض أن الحياة نشأت عن المادة وأن المادة تطورت وتركت حتى وجدت فيها الحياة فى فترة زمنية محددة دون غيرها من الفترات فلماذا لم ينل التطور كل المواد أو الكائنات وإنما نال بعضها فأصبحت كائنات حية ولم تنل البعض فبقيت جمادات لا حياة فيها؟

ولنسر مع الماركسية قدماً ولنفترض أن ذلك حدث فعلا، وأن المادة تطورت حتى نال التطور بعض الكائنات فقط فصارت مادة حية ثم تطورت المادة الحية فصارت إنساناً، فلماذا توقف التطور عند هذا الحد ولم يتطور الإنسان إلي شيء آخر والتطور قانون الكون فى الماركسية فكيف يتوقف؟

ولننظر إلى العلاقة بين العقل والمخ فى الماركسية، فقد ترى الماركسية أن المخ هو أصل العقل الذي لاوجود له حقيقة وإنما وجوده تابع لوجود مادة المخ فينشأ التساؤل عن الاختلافات الجذرية في

مستوى عقول العوام، ومستواها عند العباقرة والنوابغ، لماذا هى مختلفة على الرغم من أن خلايا أمخاخهم متشابهة لاتختلف؟

ولو حدث تغيير جذرى وانقلاب في عقل شخص حتى تحول من الرأسمالية إلى الماركسية أو العكس، أو من الإلحاد إلي التدين، أو من التدين إلى الإلحاد، فلماذا تظل خلايا المخ كما هى بلا تغير؟

"ولو كان الروح والفكر والعقل من ثمرات الدماغ المادة: والمادة هى الأصل، فإن ذلك يقتضى أن يعرف الإنسان عن الروح والعقل الشيء الكثير طالما عرف المادة الأصل، والواقع بخلاف ذلك فالماركسيون يعترفون بصعوبة معرفة الروح كما اعترف بذلك انجلز (١).

"ولو كان العقل من نتاج المادة (الدماغ) لكان الحوت مثلا- ودماغه أكبر من دماغ النملة مئات المرات- أذكى منها، والفيل أذكى من الإنسان للسبب نفسه، ولاسيما أن الكم يتحول إلي الكيف حسب النظرية الماركسية.(٢)

وهكذا فإن الماركسية لاتستطيع أن تجيب عن الأسئلة التى تثار حول رأيها فى نشأة الكون والحياة... الخ كما أن حقائق الواقع ضدها.

وكيف تستطيع أن تجيب عن تلك الأسئلة وهى أصلا ترجع إلى

---

(١) د. رمضان البوطى : نقض أوهام المادية الجدلية ص ٩٩-١٠٠.
(٢) المصدر السابق : ص ١٣٨.

ما قبل حوالى قرنين من الزمان؟ وإذا كان ماركس سماها بالاشتراكية العلمية فإنه كان فى إطار الآراء العلمية السائدة فى ذلك الزمان، فهل العلم ونظرياته وآرائه اليوم كما كان منذ حوالى مائتى سنة من الزمان؟ وهل توقفت عجلة الحياة والتقدم أم أن هناك نظريات وآراء جديدة قامت على آراء ونظريات قديمة؟

ولاشك أن تفسير وجود الكون بالإيمان بالخالق القادر العالم المريد يجيب عن كل تلك التساؤلات بل لايبقى هناك مجال لإثارتها، أما الماركسية الإلحادية فتقف حائرة دون الإجابة إزاءها، وبالتالى فإن فلسفتها فى تفسير وجود الكون ونشأة الحياة والوجود تظل عاجزة تعلن إفلاسها وفشلها بنفسها.

نقد المادية التاريخية:

إذا كانت المادية الجدلية أساس الماركسية، فلسفة واقتصادا وثقافة، ومنها المادية التاريخية، فقد ثبت بطلان الأخيرة ببطلان الأولى.

وما يؤيد بطلان المادية التاريخية خاصة، الأدلة التالية :

١- نقد تطبيق قانون المادة على الأحياء والمجتمعات:

إذا فرضنا جدلا صحة قانون التطور من خلال الصراع بين النقيضين فى عالم المادة - وهو غير صحيح كما أوضحنا آنفا- فلا وجه للقول بأن ماينطبق على عالم المادة هو نفسه ماينطبق على عالم

الأحياء والمجتمعات البشرية لما ذكرنا آنفاً من بطلان نشأة الحياة عن المادة وتطور الأخيرة حتى تنشأ عنها الأحياء.

٢- الدين وسيلة التغيير وليس وسائل الإنتاج وحدها:

ولا دليل على انفراد الاقتصاد ووسائل الإنتاج بتحريك التاريخ والأحداث، ومن ثم انتقال المجتمعات من مرحلة إلى أخرى كما ترى الماركسية، فقد أثبت التاريخ دور العقيدة كمحرك للتاريخ، ولا أدل على ذلك من أثر الإسلام الذى غير من وجه الحياة ليس فى الجزيرة العربية وحدها، وإنما فى أكثر من نصف الكرة الأرضية آنذاك فى فترة قياسية لانجد لها نظيرا، حيث سقطت الإمبراطوريات الكبرى وتغيرت العلاقات بين الحكام والمحكومين ، وأخرجت مئات الألوف من البشر، من عبادة العباد- أصناماً كانت أم بشراً- إلى عبادة الله وحده، وذلك كله مع بقاء وسائل الإنتاج كما هى دون التغيير.

وهذا يبطل انفراد الاقتصاد ووسائل الإنتاج فى تحريك التاريخ والأحداث كما ترى الماركسية، بل لقد تم التغيير بالدين الذى تعده الماركسية عائقا في سبيل التقدم وأفيونا للشعوب.

٣- نقد صراع الطبقات:

علما بأن التقدم الذى حدث فى الإسلام لم يكن بالصراع بين طبقات المجتمع من الأغنياء والفقراء بل بإيجاد المؤاخاة والمحبة بينهم

حتى اقتسم الأغنياء الأنصار، أموالهم ودورهم وأراضيهم مع الفقراء المهاجرين، عن رغبة وطواعية وليس عن صراع وكراهية. وإذا كان هناك صراع بين العمال وأصحاب المصانع في عصر ماركس فى القرن التاسع عشر فى ظل النظام الرأسمالى السائد آنذاك فإن التطور الذى جعله ماركس أساس فلسفته قد نال أيضا النظام الرأسمالى الذى لم يعد كما كان فى عصر ماركس، فقد كان العامل آنذاك يشتغل بين ١٦-٢٠ ساعة فى اليوم مقابل أجر زهيد لايكاد يسد رمقه فكان الحقد والصراع أمراً طبيعياً من قبل العامل ضد صاحب العمل أو المصنع، ولكن الاصلاحات الاقتصادية الجذرية التى طرأت على الرأسمالية قد غيرت من وضع العمال إلى درجة جعلتهم شركاء مع صاحب المعمل أو المصنع[1]، وبفضلها يتقاضى العامل أجراً كافياً قد يساوى أجر الطبيب ويملك مكتباً أنيقاً وبيتاً جميلاً وسيارة فاخرة وهو لايعمل اليوم- كما كان الحال في القرن التاسع عشر- بعضلاته ولكنه يستخدم الآلات والأزرار والكمبيوترات... الخ وهو جالس على كرسيه وراء مكتب أنيق، ويتقاضى فوق أجره أرباحاً من المصنع الذى يعمل فيه، فلماذا يحمل في داخله بركان الحسد والثورة على المجتمع أو على أصحاب العمل؟

وهو عضو في النقابة يستطيع أن يطالب بأى حق له من خلالها أو

---

(١) انظر في هذا المعنى : راسل : حكمة الغرب ٢/ ٢٣٥.

من خلال القنوات القانونية، وخلال المظاهرات والاعتصابات وسائر الوسائل التى سنها القانون.! وكل ذلك يبعد عنه دخان الحسد والحقد ضد المجتمع.

٤- نقد الحتمية التاريخية:

ترى الماركسية أن التحول من مرحلة إلى أخرى من المراحل الخمسة التى أوضحناها سابقا، حتمى لابد منه، وأن هذا التحول لابد أن يتم بالطريقة نفسها التى ذكرها ماركس فلا يمكن أن ينتقل المجتمع الإنسانى إلى أعلاها إلا إذا مر من قبل بأدناها، وبهذا تجعل الماركسية من هذا التحول قانونها يستوعب التاريخ كله والمجتمعات البشرية بأسرها.

وهو مايسميه الماركسيون بالحتمية التاريخية، أى أن التاريخ البشرى فى كل الأقطار والأزمنة لابد أن يمر بتلك المراحل، واحدة تلو الأخرى مرورا لايتخلف، ولايختلف قيد أنملة، على الرغم من اختلاف المجتمعات والأزمنة والأحوال، لافرق بين مجتمع وآخر، ولا فرق بين ماضى تلك المجتمعات وحاضرها، ومستقبلها، ولعل هذا ما أدى بجارودى إلى أن يقول إن خطأ المادية التاريخية تعميم التجربة الأوروبية على كل شعوب الأرض[1]، والشيوعية هى الحالة التى كان عليها الإنسان منذ نشأته وهى الحالة أو المجتمع الذى لابد أن ينتهى إليه

---

(١)انظر في هذا المعنى : الجارودى : ماركسية القرن العشرين ص ٧٤.

الإنسان فى المستقبل، فيها بدأ الإنسان وإليها يعود مرورا بالرق ثم الإقطاع ثم الرأسمالية وليس للإنسان الفرد أو للعوامل الدينية أو الاجتماعية الأخرى أى دور فى حركة التحول هذه سوى المشاهدة والعمل حسب ما تقتضيه كل مرحلة، فالتحول وبالطريقة نفسها آت لا محالة شاء الإنسان أم أبى، وأنه- أى هذا التحول- يأتى عن طريق الصراع بين الطبقات الموجودة في كل مجتمع بالتفصيل الذي ذكرناه وهو دائما وأبداً لصالح الماركسية الشيوعية.

وكما رأينا فى المادية الجدلية أنها مجرد فروض وهمية خيالية لأن التطورات العلمية سارت ضد مقولاتها، فإن المادية التاريخية أيضا تظل مجرد رواية أو قصة إن لم يصدقها واقع التاريخ في حركته وسيره.

والتاريخ سار ويسير عكس النظرية الماركسية الشيوعية وذلك للآتى :

أ- إذا كانت الماركسية رأت أن المجتمعات الرأسمالية لابد أن تنتقل وتتحول إلى الشيوعية الاشتراكية، فإنها أى تلك المجتمعات لاتزال قائمة مزدهرة، وقد كان ماركس قد تنبأ أن أول مجتمع سيتحول إلى الاشتراكية هو المجتمع البريطانى فإذا ببريطانيا- شأن نظائرها من الدول الرأسمالية الأخرى- لاتزال قائمة راسخة فى الرأسمالية، ليس ذلك فحسب بل إن المجتمعات الشيوعية- سواء فى عقر دارها، روسيا، أو فى أوروبا الشرقية- هى التى انتقلت وتحولت إلى الرأسمالية، معلنة

إفلاس النظرية الماركسية وبطلانها، على أن تلك المجتمعات الشيوعية السابقة ومعها المجتمعات الشيوعية القائمة حالياً كالصين، قد عدلت كثيراً فى الآراء الماركسية ونظرياتها ومقولاتها الاقتصادية، فإن كانت الماركسية مثلا تدعو إلى المضى قدماً فى نزع الملكية الفردية والقضاء عليها وتحويلها إلى الملكية الجماعية، فإن تلك المجتمعات التى بدأت بتلك الدعوة انتهت إلى التوسع فى الملكية الفردية، حتى تسمح الصين اليوم بامتلاك مزرعة صغيرة ومصنع صغير... الخ (١).

وعلي الرغم من ذلك لم تنفع تلك الاصلاحات والتعديلات روسيا ودول أوروبا الشرقية التى انهارت وتحولت إلى الرأسمالية كما أنها لن تنفع أبدا الصين. وعلى كل حال فإن تلك التعديلات نفسها إن دلت على شيء فإنما تدل على خطأ الماركسية واستحالة تطبيقها وضرورة انهيارها كما حدث فعلاً.

ب- إن الثورة الشيوعية قامت فعلاً في روسيا عام ١٩١٧، ولكنها بقيامها لم تدل على صدق النظرية الماركسية بقدر مادلت على كذبها وخطأها.

فقد تنبأ ماركس - بناء على الفلسفة التى وضعها- أن الرأسمالية عندما تصل إلي ذروتها عندئذ فقط تتحول إلى الشيوعية، فهاهى روسيا لم تصل إلى بداية الرأسمالية أصلا بل تحولت من مرحلة

---

(١) انظر : راسل : حكمة الغرب ٢/ ٢٣٥.

الإقطاع إلي الشيوعية مباشرة، فأين المراحل الخمسة؟ وأين الحتمية التاريخية؟ والمجتمعات التى وصلت إلى ذروة الرأسمالية ظلت كما هى رأسمالية كما كانت في عهد ماركس.

٥- نقد وقف التطور:

تحدد الماركسية مراحل التطور بخمس مراحل تبدأ بالشيوعية وتنتهى إليها كالملاذ الأخير للبشرية، وهاهو الملاذ الأخير قد سقط وتطور بدوره إلى الرأسمالية، لكى يبرهن بذلك على بطلان وقف التطور عند الشيوعية أو الاشتراكية، فلا دليل على وقف التطور، وهو سنة الحياة، وقانون الكون.

وكانت الماركسية - قبل ذلك- تجيب قائلة إن سبب التطور هو الصراع بين الطبقات، وعندما يصل المجتمع كله إلى طبقة واحدة ينتفي الصراع فينتفى التطور إلي مرحلة أخرى بعد الوصول إلي الشيوعية ناسية بتلك الإجابة أن المجتمع البشرى الأول أيضا كان شيوعياً حسب رأى الماركسية وقد تطور إلى مراحل أخرى فما الذي يمنع أن يتطور المجتمع الشيوعى المتطور إلى الرأسمالية أو أى نظام آخر؟

بطلان مقولة الماركسية: الدين أفيون الشعوب:

وإذا ماثبت بطلان الماركسية في أصولها "العلمية" ثبت كل ما بنى عليها من الآراء حول الدين، وأهمها وأشهرها إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالي الذي وحده- كما قلنا- يفسر وجود الكون ويفسر ما فيه من النظام والدقة، وأشهر آراء الماركسية التى يرددها الماركسيون* هو : أن الدين أفيون الشعوب، باعتباره يطالب الفقراء المظلومين بالصبر ضد الأغنياء المعتدين وعدم الثورة ضدهم على أساس أنهم سوف يعوضون عن كل مايخسرونه فى الدنيا فى الحياة الأخرى.

وللرد على ذلك نقول:

١- أما أن هناك دينا يلعب في حياة أتباعه دور الأفيون فذلك

---

* وبهذه المناسبة ينبغى أن نذكر أن الماركسية وإن كانت صريحة قاطعة على لسان مؤسسها فى محاربة الأديان واعتبارها أفيونا للشعوب وهو المبدأ الذى طبقته الدول الشيوعية كلها إلا أن لينين فى بداية الإنقلاب الشيوعى اكتوبر عام ١٩١٧ تجاهل ذلك ورفع راية الإسلام داعيا المسلمين إلى الثورة على القيصرية والدفاع عن مقدساتهم ضد القياصرة واتباعهم في روسيا، كما وقع لينين مع الأمير أمان الله خان أمير افغانستان آنذاك عام ١٩١٩ معاهدة تنص على إبقاء إمارة بخارى مستقلة.

وقد خُدع المسلمون داخل روسيا بشعارات لينين غير مدركين طبيعة الماركسية الشيوعية التى لم تكن قد اشتهرت بعد، فحارب عشرات الألوف من شبابهم فى صف الشيوعية بقيادة لينين، حتى إذا ما انتصر لينين ونجحت الماركسية وقضت على معارضيها تماما واستقرت الأمور لصالح لنين، ضرب بكل تعهداته وشعاراته عرض الحائط معلنا الحرب على المسلمين والإسلام، كما هاجم بخارى وقتل من قتل فيها وضمها إلى الإتحاد السوفيتى.

اقرأ في ذلك : د. عبد الحليم أحمدى : الجهاد في أفغانستان أصوله التاريخية ومستقبله- مجلة كلية الحقوق- جامعة الكويت- السنة السادسة- العدد الثانى يونيو ١٩٨٢.

جائز بل واقع فى حياة الشعوب والأمم، إذ تعدد الأديان الموجودة على ظهر الأرض بالآلاف وأقربها النصرانية المحرفة التى تكمم الأفواه وتحرق آلاف العلماء والمفكرين أحياء وتشنق عشرات الألوف من الباحثين وتحتكر العلم والمعرفة وتفسر النصوص الدينية وغير الدينية لصالح حفنة من رجالها فلا علم إلا ما ينطق به هؤلاء ولا حق إلا ما يصرح به أولئك، وكل ماسواه باطل وشر يستحق صاحبه الموت والحرق وكل أنواع التعذيب.

وتقف - فى الوقت نفسه- لمصالحها الإقتصادية وحماية ممتلكاتها وتنمية تلك الممتلكات على حساب الفقراء والمعدمين مع الأغنياء ضد الفقراء قائلة لهم أن مايخسرونه في هذه الدنيا سوف يعوضون عنه فى الآخرة فعليهم الصبر والسكوت حتى الموت.

نعم كل ذلك فعلته الكنيسة والنصرانية المحرفة ورجالها، وهذا صحيح وثابت فى التاريخ وحق لامراء فيه بالتفصيل الذي ذكرناه (١)

٢- إلا أن ذلك لاينطبق على الإسلام الذي هو ثورة على الأوضاع الجائرة، فعقيدة التوحيد ثورة على جميع الآلهة- من الجمادات والحيوانات والبشر- التى كان يعبدها الإنسان ويخضع لها طالباً الضر والنفع منها خائفا من ضررها وإيذائها على نفسه أو أهله أو عشيرته، فإنها أى تلك العقيدة جعلت الإنسان يرفع رأسه إلى السماء

(١) راجع في ذلك مبحث : تحريف النصرانية من البحث.

لكى يجد أن كل شيء خلق له ولخدمته فى الكون الفسيح المترامى الأطراف حتى يلعب هو دور البطل في إعمار الكون وبنائه ونشر قيم الحق والخير والفضيلة فى أرجائه بلسانه وقلبه وإن اقتضى الأمر بيده.

ولم يطالب الإسلام الإنسان بالسكوت على الظلم الواقع عليه أو على غيره، سواء أكان هذا الغير من عشيرته وأقربائه أو كان من المشتركين معه فى الإنسانية بل أوجب عليه الجهاد فى سبيل الله لنصرة المظلومين والمستضعفين وإخراج العباد من عبادة العباد والملوك والطواغيت.

فالإسلام عكس النصرانية القائلة: من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين[1] يطالب بالوقوف ضد الظالم ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[2] ويسمح بالقتال عند وقوع الظلم: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾[3] وحرم الجهر بالسوء إلا من ظلم ﴿لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾[4]، وطالب بقتال الظالم ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى﴾.[5]

---

(١) انظر أنجيل متى ٥:٣٩-٤٣.
(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٤.
(٣) سورة الحج : الآية ٣٩.
(٤) سورة النساء : الآية ١٤٨.
(٤) سورة الحجرات : الآية ٩٠

وقال تعالى :﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم: قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهتم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا﴾(١).

وقد حرم الإسلام على أتباعه أن يقفوا مكتوفي الأيدى أمام المنكرات بجميع صورها وأنواعها بل أوجب عليهم تغيير المنكر" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(٢) وجعل ذلك علة أو سبب الخيرية والأفضلية للأمة الإسلامية فإن زال وتقاعس الناس عنه زالت عنهم الخيرية، ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾(٣) وجعل الإسلام كلمة الحق أمام سلطان جائر من أعظم العبادات ولم يأمر عمر بن الخطاب القبطى الذي جاءه شاكياً بالصبر وإنما ناوله السوط لكى يقتص من ابن الأكرمين.

٣- إذا كان الأفيون الموجود في النصرانية المحرفة يقتل الإبداع والإبتكار وروح العلم والمعرفة في الإنسان في العصور الوسطى

---

(١) سورة النساء : الآيات ٩٧-٩٩.
(٢) انظر النووى على مسلم ٢/ ٢٢-٢٥.
(٣) سورة آل عمران : الآية ١١٠.

المسيحية، ويدعو إلى السبات والسكون العميق ورهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم حتى نامت أوروبا بسببها فى رجعية وتخلف مئات السنين، فإن الإسلام كان يصنع من نفس الخامات البشرية الموجودة فى الجاهلية- والتى كانت تدمن المخدرات والخمر ومئات الأمراض الأخرى- أبطالاً تتحدث عنهم القواميس العالمية، وقد صحوا من سباتهم الجاهلى العميق على نداء التوحيد الحق، ففتحوا العالم محطمين الإمبراطوريات العظيمة في التاريخ-الفرس والروم- فى فترة قياسية هى بين ليلة هجرة الرسول ﷺ من مكة ونهاية خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه،حتى غيروا من وجه الكرة الأرضية آنذاك وغيروا معه من المفاهيم والعلاقات والعقائد والعادات فأصبح الإنسان يعيش في عالم جديد تماماً لم يكن معروفاً لديه أو أجداده.

وازدهرت حضارة عظيمة نشأت فيها علوم ومعارف وفنون وتمت اختراعات وألفت قواميس ومراجع كانت أوروبا تنهل منها إلي عهد قريب.

وكيف كان يتم كل ذلك لو لم يفجر الإسلام في أتباعه أعظم الطاقات الكامنة وأكثرها حيوية.

ولايزال هذا الدين يكتسح اليوم فى عصر الذرة، عصر التقدم العلمى، عصر ازدهار الحضارة الغربية، مساحات شاسعة واسعة، فينتشر أكثر ماينتشر بين أبناء أوروبا وأمريكا نفسها، فهل هو أفيون

الشعوب ومخدرها أم مفجر الطاقات فى أبنائها؟

يقول الأستاذ روجيه الجارودى:

"وهكذا لم يكن الدين (أى الإسلام) أفيونا يشل المناضلين بل كان بالعكس حافزا يلهمهم القتال والبطولة، وكان أحد دوافع الحركة الوطنية. وحين يعنى الماركسي بموضوع الدين في الظروف التاريخية المحدودة ويعرف كيف يرى أنه ليس فحسب وسيلة للتعبير عن العالم بل هو كذلك وسيلة للحضور فى هذا العالم.

"وإن المتأمل فى الدور الذي يلعبه الدين وبخاصة الدين الإسلامى فى حركات التحرر الوطنى يقود غير المؤمنين فى الواقع إلى إعادة التفكير بروح العصر فى مشكلة طبيعة الدين ودوره في عصرنا. ونقطة الإنطلاق فى هذا التفكير هى أن الصيغة المشهورة(الدين أفيون الشعوب) والتى كثيرا ما يزعم البعض أنها خلاصة المفهوم الماركسى عن الدين لايمكن تفسيرها بأنها تعريف للدين، لقد كانت هذه الصيغة ملخص خبرة واقعية في مرحلة تاريخية محدودة ومجال جغرافي محدد ومن ثم فإن القصة القائلة إن الدين فى كل الأزمنة وكل الأمنكة يصرف الإنسان عن النضال وعن العمل، تتناقض تناقضاً صارماً مع الواقع التاريخى، وتزودنا حركات التحرير للشعوب المقهورة في عصرنا بشواهد تؤكد: أن الظاهرة الدينية لايمكن دراستها في ذاتها وبمعزل عن الظروف التاريخية فى كل بلد وعصر. فلقد لعبت

الحركات الدينية (يقصد في عالم الإسلام) دوراً تحريرياً ضد الإستعمار. وإن الإرهاصات الأولى للنضال الوطنى كانت باسم الله قبل أن تكون باسم الوطن، ولقد كان الإنتماء إلي الإسلام في الجزائر في القرن التاسع عشر بمثابة احتجاج ضد السيطرة الإستعمارية، وذلك بالرغم من طبيعتها المثالية والإصلاحية التى تربط بين التحرير والتعليم، على أن الإسلام بعيد كل البعد عن قيادة الإنسان بالضرورة إلي القدرية واللامبالاة بالحياة، بل في إمكانه أن يكونه خميرة للقتال والنضال "(١).

٤- حكمة الدعوة إلي الصبر والإيمان باليوم الآخر:

والإسلام دعوة تحمل فى طياتها سلوانا للعاجز غير القادر على عمل شيء مفيد يدفع به الأذي عن نفسه بل قد تحطمه المقاومة وتذهب بالبقية الباقية من قوته، كما تحمل الأمل والنور وسط الظلام الدامس حوله، ويمنعه عن التمزق، والضياع واليأس... بدليل أن هذا المظلوم أول مايخرج عن حالة العجز إلى حالة القدرة يطالبه الإسلام بالتصدى والمقاومة وتظل القاعدة الإسلامية هى الأصل :﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾(٢).

---

(١)أنظر: أنور الجندى : هزيمة الشيوعة ص ٩٠-٩١.

(٢) سورة البقرة : آية ١٩٤.

وقد كان الإسلام يمنع المسلمين عند ظهوره، عندما كانوا قلة قليلة عن الجهاد، ورفع السيف، فلما أصبحوا أقوياء نزلت الآية القرآنية :﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (١) تأمرهم بالمقاومة والجهاد فى سبيل الله.

أما الإيمان باليوم الآخر، فيطالب به كل إنسان ظالما أو مظلوماً فقيراً أو غنياً عاملاً أو صاحب العمل، لكى يكون هدفاً أسمى يسعى إليه الجميع يسترخصون الدنيا ومتاعها فى سبيله، ولا يتقاتلون لأجل المال ولايتكالبون على متطلبات الحياة الدنيا فيقتل الأخ أخاه والابن أباه والصديق صديقه...

وبهذا فإنه يمنع الظلم والجريمة في المجتمع ويدفع الغنى إلي مساعدة الفقير طمعاً في كسب رضوان الله وابتغاء الآخرة. وليس الإيمان بالحساب أو اليوم الآخر مجرد وسيلة يتخذها الغنى لإستغلال الفقير كما ظنت الماركسية. ورأت ذلك فعلا فى الأديان الأخرى، بل إنه يفتح الباب أمام التكافل الإجتماعى بين الغنى والفقير لكى يكونوا إخوة متحابين يتعاونون لبناء المجتمع.

ومعنى ذلك أن الإنسان له حالتان:

حالة قوته وحالة ضعفه.

فهو مطالب فى حالة قوته بالمقاومة ضد الإعتداء عليه، ورد

(١) سورة الحج : آية ٣٩.

المظالم عنه بكل مايمكله من الوسائل.

وهو مطالب فى حالة ضعفه التى لايستطيع فيها رد العدوان عن نفسه، بالصبر، على أن يقوم- فى الوقت نفسه- بالإعداد وجمع الوسائل حتى يقوى فإذا ماقوى واشتد عوده، يؤمر بالقتال والدفاع.

وله حالتان من حيث الغنى والفقر:

ففي حالة فقره، عليه أن يصبر حتى لايمزقه اليأس والضياع، وفى حالة غناه، عليه أن يمد يد المساعدة إلي الفقراء والمحتاجين لكى يكسب رضوان الله تعالى ، وهذا هو من أسرار دعوة الإسلام إلي الصبر والإيمان بيوم الحساب.

٥- الشيوعية وقتل الشعوب:

وأخيرا فإن الشيوعية طالبت الشعوب والعمال والفلاحين والفقراء بالصراع الدموى طمعاً في جنة الماركسية الموعودة تنتهى فيها الطبقات، ويختفى الظلم بكل صوره وأنواعه، ويعيش الإنسان سعيداً لايرى إلا السعادة من حوله، فلما أقيمت الدولة الشيوعية قتلت الملايين من البشر. واحتكرت السلطة وكممت الأفواه وجعلت الظلم والاستبداد واستغلال حفنة من الحزب الحاكم لمصادر الشعوب قانونا وقاعدة، وفي النهاية انهارت فجأة في لحظات مخلفة ورائها الفقر المدقع والأساليب القمعية، وشعوباً تمد يد التسول إلى الرأسمالية التى كانت الشيوعية تمنيهم كل يوم بالقضاء عليها وإزالتها، فهل كانت

الأديان هى أفيون الشعوب أم الشيوعية؟ وكيف تكون الشيوعية جنة الشعوب وهى لم تعمل شيئاً لتلك الشعوب غير القتل والدمار، إذ يعرض جارودى ضحايا الشيوعية من خلال مصادر موثوقة ثم يخلص إلي القول[1] : "إن الدراسات المعاصرة تؤكد أن ضحايا الشيوعية منذ عام ١٩١٧ وحتى الوقت الراهن قد بلغت ١٤٣ مليون قتيل من مختلف الشعوب " علما بأن هذه الإحصائية كانت قبل احتلال السوفييت لافغانستان.

(١) أمينة الصاوى : جارودي والحضارة ص ٨٥-٨٦ باختصار.

قائمة المراجع
التى ورد ذكرها فى البحث

القرآن الكريم

صحيح البخارى

صحيح مسلم

العهد القديم ، العهد الجديد.

ابن تيمية : (تقي الدين أبو العباس):

- في الكلام علي الفطرة : ضمن مجموع الرسائل، دار إحياء التراث العربى- ١٩٧٢.

ابن قيم الجوزية: (شمس الدين محمد بن أبي بكر):

- مفتاح دار السعادة مكتبة الفاروق الحديثة.

- إغاثة اللهفان : مصطفى البابي الحلبى - مصر.

ابن كثير : (عماد الدين أبو الفداء):

- تفسير القرآن العظيم- دار المعرفة- بيروت ١٩٨٠.

أبو زهرة : (محمد أبو زهرة):

- محاضرات فى النصرانية ، دار الفكر ط ٣.

أحمد حسين :

- تاريخ الإنسانية ، دار القلم.

أفلاطون :

- جمهورية أفلاطون : ترجمة : د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة مصر- -١٩٧٤.

- محاورات أفلاطون: ترجمة : د. زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة، مصر -١٩٦٦.

- محاورة مينون : ترجمة : د. عزت قرنى ، مكتبة سعيد، القاهرة ١٩٨٢.

اليكس جورافسكي:

- الإسلام والمسيحية : ترجمة :د. خلف محمد الجراد، عالم المعرفة- الكويت، العدد ٢١٥ نوفمبر ١٩٩٦.

الكسيس كاريل :

- الإنسان ذلك المجهول : ترجمة شفيق أسعد، مكتبة المعارف- بيروت ١٩٨٣.

بدوى (ثورت) :

- النظم السياسية : دار النهضة العربية- القاهرة -١٩٨٩.

برجسون (هنرى):

- منبعا الأخلاق والدين: ترجمة د. سامى الدروبى - الهيئة المصرية ١٩٧١.

بوشنسكى:

- الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ترجمة د. عزت قرنى - عالم المعرفة ، الكويت عدد ١٦٥ .

البوطى (رمضان):

- نقض أوهام المادية الجدلية ، دار الفكر ط ٢- ١٩٧٩ .

الترامانينى (عبد السلام):

- الرق ماضيه وحاضره، عالم المعرفة- الكويت ط ٢ العدد ٢٣.

توفيق الطويل :

- الحضارة الإسلامية والأوروبية، مكتبة التراث الإسلامى ، القاهرة.

جارودى (رجاء):

- النظرية المادية فى المعرفة: ترجمة : إبراهيم قريط، دار دمشق.

- مشروع الأمل، دار الأدب، ط ١ مارس ١٩٧٧ .

- الإسلام دين المستقبل: ترجمة: عبد المجيد بارودى ، دار الإيمان ١٩٨٣ .

الجندى (أنور):

- هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام، دار الاعتصام- القاهرة.

جيمس (وليم):

- العقل والدين: ترجمة د. محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٩ .

دراز (د. عبد الله):

- الدين - دار القلم ١٩٧٠.

دنيا: (سليمان):

- الحقيقة في نظر الغزالى - دار المعارف- مصر.

ديورانت (ويل):

- تاريخ تمدن : الترجمة الفارسية- ترجمة أبى قاسم وآخرين.

- قصة الفلسفة: ترجمة أحمد الشيبانى - دار القارئ العربى.

- قصة الحضارة : ترجمة د. زكى نجيب محمود وآخرين.

الرازى (محمد فخر الدين):

- تفسير مفاتيح الغيب- دار الفكر ١٩٨١.

راسل (برتراند):

- تاريخ الفلسفة الغربية - ترجمة : د. محمد فتحى الشنيطى وآخرين - لجنة التأليف - مصر.

- حكمة الغرب : ترجمة : د. فؤاد زكريا وآخرين- عالم المعرفة- الكويت عدد ٧٢.

رشيد رضا:

- تفسير المنار- دار المعرفة - بيروت.

زكريا إبراهيم :

- دراسات في الفلسفة المعاصرة- مكتبة مصر.

زكى نجيب محمود:

- حياة الفكر فى العالم الجديد- دار الشروق - القاهرة ط ٣ ، ١٩٨٧ .

- الموقف من الميتافيزيقيا- دار الشروق ط ٣ ، ١٩٨٧ .

- ديفيد هيوم- دار المعارف- مصر ١٩٥٨ .

- نحو فلسفة علمية - الأنجلو المصرية ط ١ ، ١٩٥٨ .

- قصة الفلسفة الحديثة- لجنة التأليف ، القاهرة ١٩٦٧ .

زيدان (د. محمود):

وليم جيمس - دار المعارف ، مصر.

سارتر (جان بول):

- الوجودية مذهب إنسانى - ترجمة عبد المنعم الحفنى ، ط٢ ، مكتبة راديو، القاهرة ١٩٦٦ .

السباعى (مصطفى):

- من روائع حضارتنا- المكتب الإسلامى ، ط ٣ ، ١٩٨٢ .

سفر الحوالى :

- العلمانية.

السيوطى (جلال الدين):

- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام- دار الكتب العلمية- بيروت.

شاخت (بروفيسور):

- تراث الإسلام : ترجمة د. حسين مؤنس ، عالم المعرفة عدد ١٢ الكويت.

الشاطبى (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى):

- الموافقات ، دار الكتب العلمية- بيروت ط ١ ، ١٩٩١.

شفيتزر (البرت):

- فلسفة الحضارة - ترجمة د. عبد الرحمن بدوى.

شلبي (أحمد):

- المسيحية - النهضة المصرية ، ط ٩، ١٩٩٠.

الصاوى (أمينة):

- الجارودي والحضارة الإسلامية- ط ٢ ، دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة ١٩٨٥.

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير):

- تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن)- دار المعرفة- بيروت.

عاشور (سعيد عبد الفتاح):

- المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية.

عبد الله العمر:

- ظاهرة العلم الحديث- عالم المعرفة، عدد ٦٩- سبتمبر ١٩٨٣.

عزمى إسلام:
- جون لوك - دار المعارف - مصر ١٩٦٤.
العسقلانى (شهاب الدين بن حجر):
- فتح البارى شرح صحيح البخارى - دار المعرفة ط ٢- بيروت.
غزالي (أبو حامد):
- المستصفى - دار الكتب العلمية ط ٢.
- تهافت الفلاسفة - دار المعارف- مصر، ط ٥، ١٩٧٢.
فاروق عبد المعطي :
- أوجست كونت- دار الكتب العلمية.
فرغل (يحيي هاشم حسن):
- حقيقة العلمانية: دار الصابونى ، القاهرة.
قطب (محمد):
- مذاهب فكرية معاصرة - دار الشروق ط ٣ - ١٩٨٨.
- دراسات قرآنية - دار الشروق.
- مفاهيم ينبغى أن تصحح- دار الشروق ط ٢ - ١٩٨٧.
قطب (سيد):
- فى ظلال القرآن- دار الشروق ط ٩- ١٩٨٠.
- المستقبل لهذا الدين- دار الشروق ١٩٨٢.

كرسومان (ريتشارد):

- الصنم الذي هوى - ترجمة : فؤاد حمودة ، ط ٣ ، دار السعودية للنشر.

كرين (بينتون):

- تشكيل العقل الحديث- ترجمة : شوقي جلال- عالم المعرفة - الكويت عدد ٨٢ اكتوبر ١٩٨٤.

المجموعة :

- الله يتجلى في عصر العلم- ترجمة : د. دمرداش - مؤسسة الحلبى، القاهرة ط ٣ - ١٩٦٨.

المجموعة : لجنة إدارة شئون المجتمع العالمى :

جيران في عالم واحد ترجمة مجموعة - سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٠١- الكويت.

محمد عبده :

- الإسلام والنصرانية - المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٨ الجزائر.

المراغى : (محمود):

- أرقام تصنع العالم - كتاب العربي ٣١-١٩٩٨.

مصطفى عبد الرازق :

- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية - لجنة التأليف والترجمة- القاهرة ١٩٦٦.

المودودى :

- المصطلحات الأربعة- دار القلم- الكويت ط ٦- ١٩٧٧.

موسي بن ميمون :

- دلالة الحائرين - تحقيق د. حسين آتاى - مكتبة الثقافة الدينية.

الندوى (أبو الحسن):

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- دار القلم ١٩٨٢.

نهرو (جواهر لعل):

- لمحات من تاريخ العالم- ترجمة: مجموعة- المكتب التجارى ، ط ٣

- نيكسون (ريتشارد):

- مابعد السلام- ترجمة : محمد عبد الحليم أبو غزالة- دار الهلال.

هوفمان (مراد):

- الإسلام كبديل - ترجمة : محمد غريب- الرياض ط ٢ - ١٩٩٧.

وافى (د. على عبد الواحد):

- الأسفار المقدسة قبل الإسلام، نهضة مصر- القاهرة.

وحيد الدين خان :

- سقوط الماركسية - ترجمة :ظفر الإسلام خان ط ١ - رابطة الجامعات الإسلامية.

- الدين فى مواجهة العلم- ترجمة- ظفر الإسلام خان، ط ٢- ١٩٨٤.